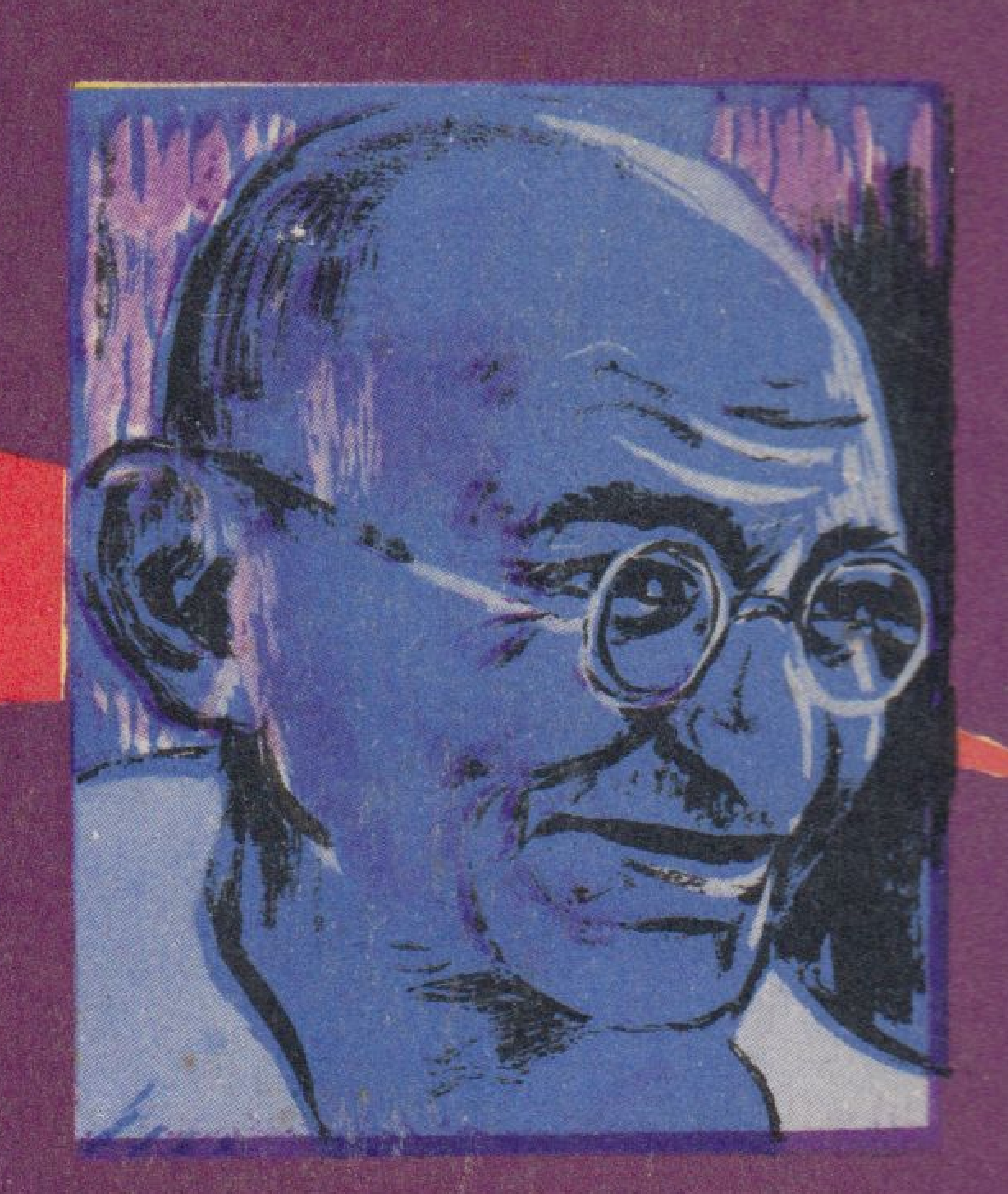


حضارتهم وحضارتنا



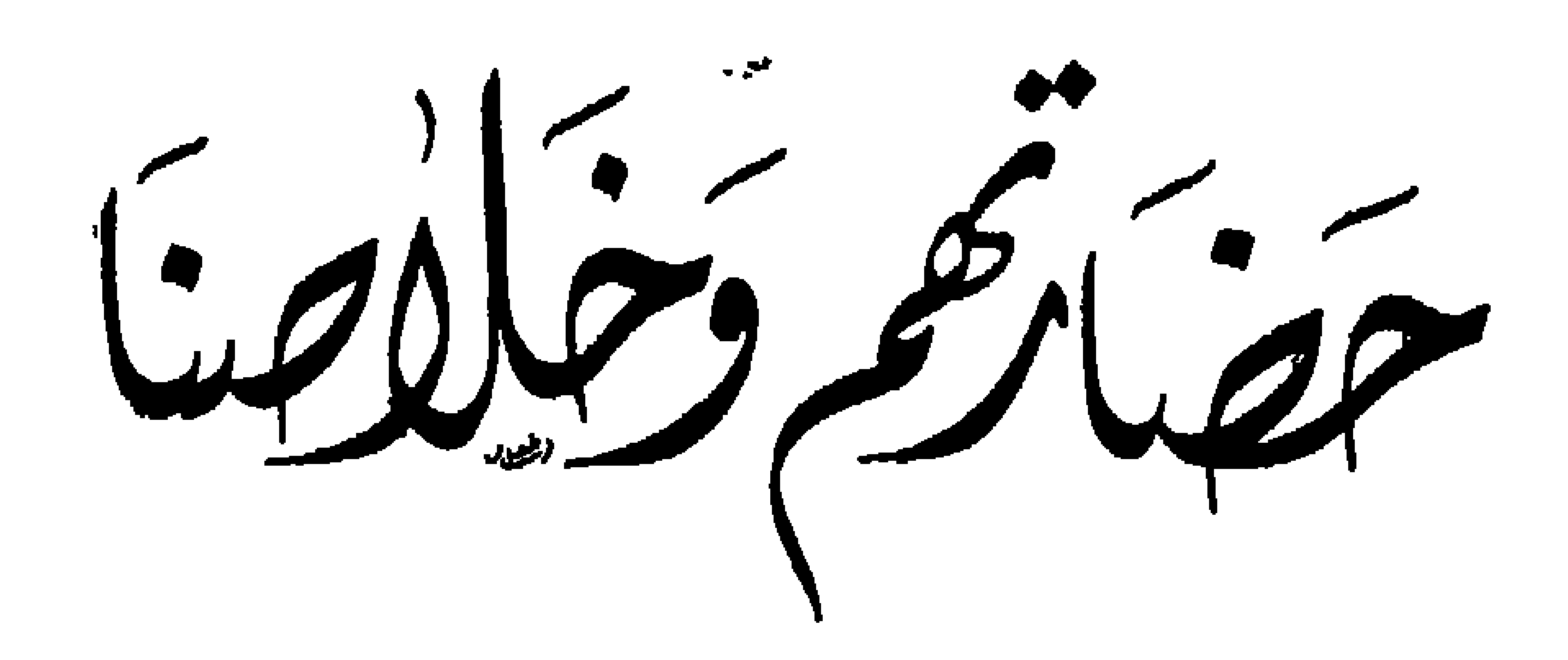


حضارتهم وخلاصنا

الطبعة الاولى

تشرين الاول ١٩٥٩

المهاتما غاندي



تعريب

نجدة هاجر
دبلوم في العلوم السياسية

سعيد الغز
مجاز في الجغرافيا

منشورات
المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت

توطئة

بقلم
لانزا دلغازتو

إن هذا المؤلف الصغير ذو اهميـــة قصوى . ومن المدهش حقاً ان يكون قد صدر ونشر ، في فرنسة ، الكثير من كتب غاندي ، واكثر منها عن غاندي نفسه ، دون ان يكون لهذا المؤلف الذي يحمل بذور المذهب الغاندي من مكان فيها جميعاً .

وسبب ذلك على ما يبدو ان هذا الكتاب يجمع بين السلاسة والجرأة ، حتى ان سياسيي الهند الجديدة لم يُقدموا على نشره ، ولا الغربيون كانوا مستعدين لأن يتقبلوه ، لأنـــه يتهم هؤلاء بمساندة حضارة شيطانية ، ويتهم اولئك بتشويه طبيعة بلادهم ، واستعبادها تحت ستار تحريرها .

والشيء الذي يؤسف له أن مهاجمة الحضارة الغربيـــة ، لم تكن اقوى وافصح مما كانت عليه في المؤلفات الاخرى . والواقع ان الحملات التي قادها بعض المفكرين الغربيين مثل «جاك ألـّول»

في كتابه « الفن او لعبة العصر » ، و « لوسيان دوبليسيس » في كتابه « الإنسان والآلة » ، و « جينا لومبروسو » في كتابه « فدية الآلية » ، تتخطى بكثير حملة غاندي . ولكنها جميعاً لم تجد آذاناً مصغية عند المعاصرين الذين لا يودون سماع شيء ، وإذا سمعوا فإنهم غير مستعدين ان يعملوا شيئاً .

وحملة غاندي لا تتميز بما تقدمه من دلائل دامغة ، بل بالحقيقة التي يقدم مثالاً عنها حياته ذاتها ، وهذا ما يجعلها افضل من مثيلاتها واقدر على الإقناع .

اما محرماته فهي انعكاس لإيمانه . وكل من يؤمن باللا عنف عليه ان يعرف ويعترف ويتقبل كل ما يحرّمه عليه غاندي في مذهبه .

* * *

إن غاندي ليس فيلسوفاً ولا عالماً اجتماعياً ولا مؤرخاً ، ونقده لحضارتنا ليس نتاج دراسة معينة او مذهب محدد ، بل يأخذ جذوره من تجارب غاندي في حياته الخاصة ، ومن معتقده الديني . وهذا ما يفسّر ميزة هذا النقد وقوته ، واخطاءه اذا سلّمنا بوجودها .

وهذه التجارب هي نتاج خيبة امل ، وانعكاس رغبة ملحة في الإطلاع ، وجاذبية لا تقاوم ، واعجاب يعود الى منابع الذكريات الأولى ، الى ايام الطفولة . والحضارة الحديثة المتمثلة بالعنصر الإنجليزي بالنسبة لموهانداس الطفل ثم التلميذ ثم الطالب ، هي القوة والحرية ، وهي ايضاً الإنطلاق والتسامح وطلاوة

الفكر، والجرأة في الاختراع والاكتشاف والاقدام، وهي المنطق السليم والعمل العادل والتفكير العلمي .

وهذا ما يسبب الذهول ويبعث الغيرة . إنه استاذ نمقتـــه بإعجاب ، ومثال نقلده مـع اصرارنا على نكران معرفتنا به . وذلك لأننا اذا عدنا الى انفسنا نحمر خجلاً لِمـــا لحقنا من ذل واستعباد ، قابعين في العوز والجمود والهرم ، وسط شعب ذليل ومستعبد ، مُنع من كل عمل حيـاتي بقيود روتينية ، وحواجز خرافية ، أُقفِل عليه في دائرة التعاويذ السحرية، لتعوق اندفاعه العاطفي الحواجز القـَبَليّة والطائفية والمعتَقـَديّة ، والمخاوف من العدوى الروحية .

* * *

لقد ارتكب غاندي ثلاث معصيات في صباه ، إذ انساق مع رفيق له الى إحدى الحانات حيث اكل اللحم ، واشترى تبغـاً ودخن ، ثم انتهى المطاف به الى احد بيوتات الهوى .

وجرّت هذه المعصيات الثلاث الى ثلاث أُخرى ، إذ كذّب ليخفي ذنوبه ، وسرق ليغطـّي نفقات مغامرته ، ثم يئس واستعد لقتل نفسه ، ولكن الخوف اوقفه ، وبعون الله عتقته الحقيقة . فقد اعترف بكل شيء خطياً لوالده ، ثم لنـــا جميعاً عندما نشر مذكـّراته .

وامّا سبب هذه السقطات المتوالية فيعتريه بعض الغموض ، اذ ليست استجابة لرغبة جسدية كما يقول ؛ بل دفعه الخجل الذي اعتراه لشعوره بأنه ضعيف ومحكوم . وهـو في سقطته لم يكن

يفتّش ولم يجد اللذة ، بل كان يسعى وراء القوة والحرية كما يظهر. ويعترف الفتى ولكن بغموض ، بأنه في سبيل القوة والحرية ، كان عليه ان يتخطّى المحرّمات الهندوسية ويقلّد ذلك «الانجليزي الكبير الذي حق له ، بسبب اكله لحم البقر ، ان يسود الهندي المسكين » .

وقبل ذلك يروي كيف أبحر في شبابه اليافع الى انجلترة . ولكنه لا يشير بوضوح الى سبب هذه الرحلة ؛ إنه لا يعطينا إلاّ السبب القريب الذي اقنع اهله وأقاربه ، فسمحوا له بالذهاب ، ألا وهو متابعة الدراسة العليا ، والحصول على دبلوم من لندن يتيح له ان يعمل في حقل المحاماة ..

لقد طلب منه كبار عشيرته آنذاك ، ان يعود عن قراره هذا الذي يتنافى مع الطهر والتقاليد ، لِما يكتنفه من مخاطر . ولمّا رفض ان يستجيب لطلب هؤلاء حرموه. وهذا حُكْم قاسٍ جداً على هندوسي ، ويكفي لضياع مستقبل ، وإفساد حياة ، وإلحاق الضرر بعائلة ، بل بنسل كامل . ولكن غاندي لم يأبه بذلك ، وسافر تاركاً لأخيه الاكبر مهمة اصلاح الامور قدر المستطاع .

وهنا يجب الاعتقاد أن الرغبة كانت اقوى واكثر غموضاً من الاهتمام بمركز مرموق . وأغلب الظن انه كان في حاجة الى هذا الانفصال للانعتاق والتحرر ، وكان على غاندي أن يفتش عنه في انجلترة .

* * *

ان في امكان القارىء السطحي أن يبتسم لرؤية هذا الهندي الشاب الذي سيصبح «مهاتما» يوماً ما ، عندما يقف امام المرآة يثبت ربطة عنقه ويتمرّن على رفع قبعته العالية للتحية ، وعلى رقصة البولكا،ويستعد لتحمل الكثير من السخافات والتجارب كي يظهر بمظهر السيد الكامل مثل « الجنتلمن الانجليزي» .

ومع ذلك ، فلم يكن في هذه المحاولات المظهرية شيء من الزهو والتفاهة ، بل السؤال الخطير نفسه يتجدد : أين يختبىء مفتاح القوة والحرية البريطانيتين ؟ هل هو في القانون ، أم في ابحاث الاقتصاد السياسي،أم في الياقة المنشّاة وفنجان الشاي؟!.

لقد قطع غاندي على نفسه عهداً ، أمام والدته ساعة سفره، بأنه سيحافظ على عفته وطهارته ، وسيبقى نباتياً .

وهنا تكمن بذور قوته ، لأن هذا الامتناع وحده ، كان يكفي لأن يجعل منه شخصاً نسيج وحده ، معتزلاً في جلبة المدن الكبرى ،ويتيح له التأمل وسط الضوضاء ، أن يشهد ، في انتظار الإفصاح عن رسالته ، اللاعنف ، هذه الرسالة الحلوة التي اقضّت مضجع الامبراطورية العجوز واضطرتها الى التخلي عن نصف ممتلكاتها .

وآنذاك لم يكن هناك ما يحمل على إثارة الظنون في هذا الغريب الخجول الأخرق ، النبيه الدائم الابتسامة ، الذي كان يحاول جهده التقيد بالياقة الانجليزية تقيداً حمل نفسه الرصينة عليه للاطلاع والتفهم، حتى ذلك اليوم الذي فهم فيه أنه حيث كان يسبر غور الاسرار ، لم يكن يوجد سوى الفراغ والضلال

والخداع الذي يجب اهماله .

ولم يذهب احد مطلقاً الى الاعتقاد أنه سيتحوّل يوماً الى اعظم ثائر في التاريخ .

* * *

واول ما اكتشفه غاندي لدى وصوله الى لندن هو أنّ الإنجليزي رجل لا يزيد ولا يقلّ عن سواه . وليس هذا الشيطان ذو الشعر الاحمر ، هذا الكائن «الذي يظهر حاملاً شريحة اللحم باليد اليمنى ، وكأس الويسكي باليد اليسرى» او ، اذا اردنا ، هذا البطل القوي ، الحرّ والسيد ليس إلا انساناً مثلنا . حتى أنه انسان صغير ولطيف ، رقيق وانيق ومضحك ، قادر على أن يتأثر وتعتريه حمرة الخجل ، يميل الى التسلية والمزاح ، كثير الاخطاء الى درجة أنه يستحق العطف والشفقة .

فما هي اذن العلاقة التي تربط هذا الكائن الأبيض الإنساني بتلك الامبراطورية الرهيبة التي تلقي ظلالها على القارات والمحيطات ؟

وهل في امكاننا الاعتقاد انه كلما كبرت الحضارة صغر المتحضر . ؟!

لقد وقف هذا الهندي يفكر مذعوراً ، ويراقب الناس يتفرّقون في الشوارع كالقطيع الذي دبّ فيه الهلع الدائم . كانوا مارة شرسين ، عيونهم شاردة ونظراتهم تائهة . مظهرهم إما متجهم واما مضطرب ، والرأس الى الامام كأنه على وشك السقوط . فهل هذا هو الشعب الفاتح الحر السيد ؟ !

وهل هذه الاكواخ العفنة في « است آند » التي ينعقد فوقها الدخان الخانق ، هل هذه المصانع الجهنمية بجلبتها ، وهل هذه الافران العالية والآبار والمناجم الـتي لا ترى النور ، وهل هذه الارصفة التي يجللها الضباب : هل هذا كله هوالموطن الذي يعيش فيه الشعب الفاتح الحر والسيد ؟

ليس هناك صحراء تحزن النظر مثل هذه العـاصمة السوداء الغارقة في المطر والدخان ، حيث تفور في دوامتهـا كل ثروات العالم .

كم من اعمال وصفقات ، وكم من اسفار واكتشافات ، كم من حروب مدمرة وكم من مغامرات وانتصارات برزت من هـذه المدينة . شعوب اميركا واستراليا صفيت ، وشعوب افريقيـا استعبدت بالملايين ، والهند ذات الثروات الاسطورية ، اصبحت خراباً يباباً يعشش فيها الفقر والعوز والجوع . كل ذلك فيسبيل الثروة والمجد : انها ركام من الاشياء السوداء بين الضباب !

انني ارى جيداً المغلوبين ، ولكن اين هم الغالبون ؟المغلوبون هم نحن ، نحن الشعوب الملونة ، وسكان الجزر والغابات والجبال وسكان المدن ذات القباب المذهبة ، والشعوب المتوحشة الـتي ترقص حول النـار ، والشعوب المترفة والمفرطة في الدقـة ، والشعوب الورعة الحكيمة المسالمة . نحن جميعاً ، على الرغم من كل ما بيننا من تفاوت انخنا رقابنا لنير الاستعباد !

لقد انتصروا علينا في الحروب وافسدونا في فترات السلام . والذين ابوا ان يرضخوا هلكوا ،والذين رضخوا مثلنا لاقوا حظاً

اسوأ ، لقد خسروا ارواحهم ، لم يكتفوا باخضاعنا بل اشترونا ولم يكتفوا باستغلالنا بل اغوونا !

لقد فرضوا علينا ان نعمل لصالحهم، ونحارب في ظل علمهم. لقد دفعونا الى التخلي عن ايماننا ليحشوا رؤوسنا بـأفكارهم . وقضوا على فنوننا وصناعاتنا ليمطرونا بتوافههم . ثم اثاروا فينا القرف من عاداتنا وازيائنا واعيادنا واغانينا . وانتهوا بنا الى الاعتقاد بأن افضل شيء لنا هو ان نكون هم . وهكذا متننا من تلقاء أنفسنا !

* * *

ولكن أين هم الغالبون ؟ عندما ننظر الى وجوه اولئك الذين سببوا الكثير من الاذى نرى التعاسة ولا نجد الخبث ، لأنهم اشد عوزاً من اولئك الذي اخذوا منهم كل شيء . واكثر استعباداً من اولئك الذين ظنوا انهم عبيد لهم . وهم مرتبطون بزبجتهم و حقوقهم ، ومتمسكون بمواعيدهم ، مسرعون للحاق بما فاتهم ، مقيدون بآلاتهم ، مضطربون في عرباتهم ، تتحكم بهم المراقبة والقوانين ؛ انهم يحملون على محياهم علامات العبودية : الغباوة والثورة واليأس .

إني ارى العبيد فأين هم الأسياد ؟

نعم اسياد اسيادنا اين هم ؟ اولئك الذين يمسكون زمام القوة والحرية ؟ الذين يزيدون قارون ثروة وتيمورلنك صلابة عود ؟

أين هم في الواقع ؟ اننا لا نراهم لكثرة ما يحيط بهم من ضباب ويكتنفهم من غموض. انهم يرتدون ألبسة كالتي يرتديها كل الناس

ويركضون مقوسي الظهر اكثر من الآخرين تحت سيـــاط غير منظورة ؛ يقتلهم القلق وتنهكهم السرعة اكثرمن غيرهم، عبيداً لما يملكون ولما يحلمون بامتلاكه في المستقبل .

هل هم انتم رجال السياسة والوزراء والحكام ؟ انني لا ارى فيكم إلاّ دمىً تحركها ، بواسطة الخيوط، ايدٍ خفية هي المصالح والآراء والصفقات ، والمكائد . انكم تمثلون الشعب كما تمثل الدمى بعض الاشخاص . وكيف ينتج عن جهل الجماهير وتهورهـــا ومقامرة الإنتخاب الحكمة والكرامة والسيادة ؟

القادة هنا يخضعون لتوجيه مَن يقودونهم . فليس هناك قيادة ولا حق ولا استقامة .

والاسياد والرجال الاحرار ، هل هم انتم ايها الاغنياء القلائل الذين لا هم لكم في القفير إلا ان تقطفوا وتتذوقوا افضل ما في الحياة كأنكم نقطة النهاية وزهرة هذا العالم ؟.

إذا كان الحر هو الذي يعمل ما يريد فكيف تكون حرية اولئك الذين لا عمل لهم ، ويكفي ان يريدوا شيئاً حتى تتحقق رغباتهم؟ انهم خاضعون لضرورة الاستمرار في العب من مباهج الحياة . ولكن الرغبـــة غير المحدودة تثير القرف ، والمباهج الدائمة تبعث الضجر . إنهم مجبرون على الشرب دون ان يكون لهم رغبة في الشراب ، ويأكلون دون ان يكون لديهم قابليــة للأكل ويقومون بادوار الحب دون أن يكون هنـــاك حب ، ويلعبون الغولف ليرتاحوا من الراحة ، ويسافرون دون هدف، لأن سعادتهم متوفرة في كل مكان يذهبون اليه . ويقرأون

ليتسلوا ويتناسوا كل فكرة ، ويتثاءبون في حفلات الرقص وفي المسارح . إنهم بدون شك سيقتلون انفسهم يوماً عندما لا يجدون مخرجاً لتعاستهم وسبباً لوجودهم وبقائهم .

وها هوذا اخيراً ، في وسط الدوامـة ، الفراغ الذي يسمى غروراً .

* * *

وفي انجلترة اكتشف غاندي امراً جديداً : لقـــد اكتشف الهند ، ولاحظ قبل كل شيء بأن الهند تثير عند الانجليز رغبـة ملحة في الاستطلاع ، ولها جاذبية لا تقاوم . لقد كانت احجية وامراً يدعو للتفكير واحياناً للاحترام والتقـــديس ، واكثرهم سطحية يسكتهم سحرها، واكثرهم تشككاً ينقطع عن التفكير والضحك بعد ان تسري في جسمه رعشة الرهبة المقدسة.

وإذا كان غاندي في البدء قد تخوف ساعة نزوله من الباخرة، من مواجهة البرودة والتعاظم البريطانيين ومعاملته معاملة الرعاع المنبوذين ، فقد خدع نفسه لأنه سرعان ما وجد العكس. فأصله اثار اهتمام الجميع واحترام الكثـيرين . إذ ان اي شرقي في نظر الغربيين عنده المقدرة على السحر والتقديس ، ويحمـل المفتـاح الذي يقود الى الكشف عن اعمق الخفايا .

فقد توالت عليه الأسئلة بدون انقطاع عن تناسخ الأرواح ، وانتقال الاجسام الدقيقة ، عن الرعدة والغيبوبة ، وعـن لوح المسامير والكما سوترا . ووجد المجال امامه واسعـــاً للرفض والاعتذار والدفاع عن النفس موضحاً جهـله لهذه الأمور بكل

بساطة وتواضع . ولكنه لاحظ ان الجميع مستعدون ان يقبلوا ويصدقوا منه كل شيء ما عدا ادعاءَه الجهل .

والواقع ان غاندي كان حينئذ لا يعرف الا القليل عن ديانته . وذلك لأنه رفض الاطلاع على كثير من الأمور، ورفض الاعتقاد إلا بما يقبله العقل ويفسره ، ويقبل به القلب ويستطيع تحقيقه عملياً .

وقد اندهش من سرعة التصديق التي يتحلى بها هذا الغرب الملحد ، كأن كل الدقة والمهارة اللتين عرف بهما ، قد غارتا في العالم الخارجي، في حساب القياسات والاعمال الانشائية والترميمية بحيث لم يبق لديهم للالتفات الى الحقائق الروحية والحياة الابدية إلا تمنيات غامضة وتفاهات وضلال .

ومع ذلك فقد صادف بعضاً من الانجليز يمتازون من غيرهم بما يكنونه للهند من اعجاب يصل الى درجة الوَلَه الذي يدوم مدى الحياة . وكان البعض يظهرون هذا الحب الغريب . كتلاميذ «ماكس موللر» ، بدراستهم المتقنة للغة السنسكريتية، وتحليل ما جاء فيها ونقده . والبعض الآخر بادّعاء الصوفية على طريقة دينية تضم كل الاديان وعلى رأسها البراهمانية دون ان يكون لها عبادة او وصايا او واجبات ، مكتفية بالعقائد والعجائب والامثال والخوارق .

وكان يصغي بطيبة خاطر لجميع الساعين وراء المعرفة ، ولكن لا هؤلاء ولا اولئك استطاعوا ان يعلموه اصول تقصّيهم اللغوي او معتقدهم الغريب . وتوجّب عليه الكثير

تجاه هؤلاء واولئك لأنه تلقى منهم « الفيتا » او « الاوبانيشاد » في الترجمة الانجليزية التي يستطيع قـراءتها . ولم يحتج كسواه الى دراسة تستمر عشرين عاماً ليتسنى له من بعدها الفهم، ولا كالبعض الآخر للإعتقاد بمظاهر غريبة .

لقد قرأ فتأثر فآمن ... وفهم ان التقاليد الهندوسية ابعد من ان تكون تجسيداً لفوضى مضطربة غامضة ، لأننا عندما نبحث عن جذورها تظهر واضحة صافية مشعّة . وتقتصر على ثلاث تعاليم :

لا يوجد الا حقيقة واحدة : معرفة النفس ـ ومن عرف نفسه فقد عرف الآخرين وعرف العالم وعرف الله .

ولا يوجد إلا قوة واحدة وحرية واحدة وعدالة واحدة هي السيطرة على النفس ، ومن سيطر على نفسه فقد غلب العالم.

ولا يوجد الا خير واحد : محبة الآخرين كأنفسنا .

والباقي كله صور ووهم وخيلاء .

* * *

ولغز الحضارة الغربية هذا الذي انكبّ عليه غاندي منذ طفولته ، والذي درس وسافر في سبيل البحث عن حلٍ له بين الغموض والتضارب : وجـد الآن بصيصاً من نور . والجواب الذي لا يدانيه شيء وضوحاً وجلاءً على اسئلة اليوم جاءه من اعماق العصور السحيقة ، لقد وجده في نصوص التقاليد . وما عليه إلا أن يستند على قياساتها ليقدر عظمة العالم الحديث المقلقة ومتاعبه غير المنتظرة .

يستحق الغربي ان يكون سيد الارض لانه حائز كل المواهب والمؤهلات ، وقادر على القيام بالاعمال الضخمة التي نسبها غيره من الشعوب الى الآلهة . وهناك شيء واحد لا يقدر الغربي عليه، هو ان يجلس مدّة خمس دقائق فقط الى نفسه ينظر اليهـا بعينه الداخلية . وهذا وحده يدل على انّ الحضارة الحديثة رنين في الفراغ وتألـّق كاذب ، ويشرح كل المساوىء والمصائب الـــتي نتجت عنها .

وهو بدون شك اكثر ذكاء من سواه إلا انه اقل حكمة ممن عرفتهم الارض جميعاً ، واكثر الذين يتخذهم له مثالاً يقتدي بهم كانوا مجانين العبقرية. وذلك لأن حضارة الغربي نفسها هي ضرب من الجنون العبقري . وميله القوي للمشروبات المسكرة وتعلقه بالجنس يظهران كيف انه عوضاً عن البحث عن نفسه يسعى الى نسيانها وخسرانها . ونمشروعاته الضخمة وتصرفاته البطولية ، حتى اعماله الحسنة والجيدة ما هي إلا نسيان وخسارة . وقوته في العمل وجرأته في الاختراع والإكتشاف ، وقيمته في الحرب هي نزعة غريبة الى الهرب اكثر منها قوة روحية خارقة .

والميكانيكية السريعة والصاخبة ، والمتفجرات التي يصنعها ويفضلها على الخبز والسعادة والراحة ، ليست كلها إلا استجابـة لحاجة ملحّة تدفعه الى محاولة الخروج من نفسه والاستمرار في الدوامة حتى الغيبوبة .

ولو كانت له القدرة على مواجهة نفسه خمس دقائق فقط لفهم أنه كلما استعجل وسائل النقل ، كلما زادت متاعبـه وتعرض

للأخطار وخسر الوقت عوضاً عن ربحـــه . وهذه الحجة تبقى بدون قيمـــة بالنسبة لمن لا يسعى وراء كسب الوقت والنمو والتفتح ، بل وراء الضياع والانفجار .

وخوفه من الوحدة ، وبغضه للهدوء والسكون ، وتعلقـه الزائد بالمال ، كل ذلك جعله أعجز من ان يستطيع استكناه شيء من اعماقه ، وهذا سبب حركته الدائمة .

وتكالبه على اجتياح العالم لاحتلاله له علاقة وثيقة ومباشرة بعجزه عن السيطرة على نفسه ، ولذلك يزرع أنى كان الفوضى والفساد .

واتساع معارفه الفيزيائية ودقتها ما همـــا إلا نتيجة نظرته المسمَّرة بالفضاء الفارغ بين الأشياء ، وليس فيها شيء تعلمه إياه عن نفسه وطريقه وهدفه ، ولا تستطيع ان تمنحه الا سلطة على الأشياء المادية تمكنه من معالجتها الشديدة الخطر ، وتبقيه معلقاً خارج نفسه ، في الفراغ الخارجي .

« لقد قاس بعقله ونسي خالقه » . هذه بكلمة موجزة جريمة الغرب وخطيئته التي لا تغتفر . لأنها خطيئة ضد الروح .

ولفرط ما وجّه للمادة ما خُصص للاقتراب من الله ، ولفرط ما سخّر للإستفادة ما خُصّص للدعاء ، توصل الى تحليل الذرة ، العمل الذي يتنافى مع عبادة الخالق والحياة الأبدية .

لم نكن آنذاك في سنة ١٨٨٩ مع الشرقي الصغير ، ولكننا نذكر فيما نذكر ، ذاك القطار الصغير المزدهي بالالوان ، الذي اخذت مكانها فيه الملكة فكتوريا الى جانب زوجها الفاضـل ،

تبتسم وترد بيدها تارة ، وبقبعتها طوراً ، على تحيات الجماهير ، التي احتشدت هناك على جانبي الخط الحديدي لتشارك ملكتها في احتفالها بالتقدم العلمي،واختلطت اصواتهاجميعاً بأصوات كبار الشعراء والمفكرين . في ذلك الحشد الهائل وقف الشاب الشرقي وحده ينظر ويتأمل طرف الخط الحديدي وما سيكشفه لمعان الانفجار من مقابر كبرى للقرنين العشرين والحادي والعشرين .

« يكفي ان ننتظر ، قال غاندي ، لنرى هـــذه الحضارة تقضي على نفسها . »

* * *

وبعد قليل من الوقت ، اكتشف غاندي في انجلترة ، اكتشافـاً ثالثاً قلبَ المقاييس عندهُ : ذاك هو الكتاب المقدس .

إن تخطي الشجاعة بالوداعة ، والقوة بالطيبـــة ، والفضيلة بالحرية ، والقانون بالتسامح ، والذات بالحب اللامتنـاهي ــ هو بالضبط ما تطلب التقييد به « الدهارما » والكتب البرهمانية .

إن الفقر الذي هو سعادة الروح ، والتجرد الذي تفرضـه الحرية، ونقاوة القلب حيث تنعكس الحقيقة، والجوع والتعطش الى العدالة بانتظار ملكوت السماوات على الارض ، وافـراح التضحية وانتصارات الشهادة . كل هذا جعل قلبه يختلج ، فـلم يطلب براهين بل اكتفى بالاطلاع عليها واقتنع بها .

« ماذا ينفعك لو ربحت العالم وخسرت نفسك ؟ » هذا ما يفسّر باختصار تفاهة الانتصارات الغربية .

إن الانجيل يعني : البشرى السارّة . إنه البشرى السارّة

لأولئك الذين تقهرهم هذه الحضارة : تبشّرهم بالحكم على الحضارة بالفناء ، وتطمئنهم الى انّ نهايتها اصبحت قريبة .

لنأخذ الموعظة على الجبل ، لنأخذها معكوسة ، ولنعط كل حقيقة او قاعدة ضداً او عكساً او تأكيداً ينفيها ؛ نحصل على التجسيم الصحيح الكامل للحضارة الحديثة في العالم ، هذه الحضارة التي تهزأ من السماء وتستر تجديفها مدّعية بأنها مسيحية.

وهؤلاء انفسهم الذين قيل لهم : « إذهبو وبشروا الشعوب ، احملوا لها الحقيقة التي تعتق ، والاحسان الذي يخلص ، والسلام » هؤلاء انفسهم طافوا العالم سعياً وراء الذهب ، واستعبدوا الناس لاستثمارهم في المزارع والمصانع والمناجم ، وبشّروا بالالحاد وتحليل كل شيء .

وبينما قيل لهم: « إسعَوْا وراء ملكوت السماوات والعدالة ، والباقي يُعطى لكم بدون بدل » . عبدوا المادة وطلبوا من الدين ان يبرر شذوذهم ، ويبارك مدافعهم . حيث كان عليهم ان ينقلوا كلمة الله باعوا الخمور وزرعوا القنابل .

وعلى الرغم من انه طلب منهم ان يحوّلوا خدّهم الأيسر لمن يصفعهم على الخدّ الأيمن ، فقد تمرّسوا في فنون القضاء على العدوّ وتدميره قبل رؤيته ، هذه الفنون التي جعلتهم لا يقهرون . وحملوا الانجيل في عربات الاسعاف ليبشّروا بتعاليمه بين من بقوا على قيد الحياة ، ويدعوهم الى الخضوع وتسليم امرهم الى الله .

ولكن قد قيل : « من اخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ »

وقيل : « حاكمُ هذا العالم قد حوكم » والقصاص الذي يفرضه الله هو : التعاسة التي يتردّى فيها الانسان بخبثه ، والسلسلة التي يصنعها ليقيّد نفسه بها وآلة الموت التي يبتكرها لتقضي عليه .

لقد سبق ودمرت العواصم الكبرى للحضارة الحديثة : اينوخ المدينة الصناعية الكبرى التي بناها قايين . وبابل ذات البرج المشهور التي بنيت لتضم جميع الشعوب . وسدوم التي دنست بوقاحة مقدّسات الروح محاولة ان تستغلها للاستفادة واللذة . ومدينة بابل التي استبيحت فيها كل المنكرات لقاء المال كأنها العاهرة تبيع جسدها لكل طالب لذّة . كل هذه المدن كان يجب ان تزول ، ليأتي الملكوت ويمتلك الطيبون الارض .

* * *

تلك هي الاسس التي ترتكز عليها حملة غاندي العنيفة ، ونقده الصريح ، الممزوج بالتنبؤات .

وعندما يقول : «الآلة هي سيّئة بذاتها ، ويكفي ان نعلم ذلك لنمتنع عن صنعها» ، يسبق غاندي عصره التقدمي وعصرنا.

وعندما يقول ايضاً: «الآلة هي التعبير عن وضع خاطىء». لا يكلف نفسه عناء حساب الفوائد والمضار ، بل يذهب الى ابعد من ذلك ، الى جوهر القضية وينظر الى الخبثاء الذين يسيئون استخدام ذكائهم ، فيتناسون خالقهم . «ليصنعوا العبودية والموت» .

ولم ينتظر ليرى الآلات تصنع ما يكفي لتدميرها مع الصانعين . لم ينتظر صُنع القنابل الفتاكة ليفهم معنى كل ذلك ويحذّر من نهايته .

لقد اقتنع بأن الآلة التي تقوم مقام الجسم الحي بدون أن يكون لها حياة ، هي منافية لطبيعة الحياة وضد الحياة .

واقتنع بأن الآلة تتنافى مع الضمير والوجدان . والذكاء الذي انكبّ على صنعها عوضاً عن البحث عن الحقيقة وتلمّس طريق الخلاص ، ابتعد عن الله ليغوص في اعماق الظلمات الخارجية ..

واكتفى بالملاحظة ان الدافع الوحيد لكل هذا العمل الضخم هو اختصار العمل وادّخار الوقت . انهـا حمّى السعي وراء الربح ، هذا الربح الذي يتنافى مع الحب ، واستنتج بأن كل ذلك يقود الى الهلاك .

* * *

يقي ان نتفحص النقطة الضعيفة في آراء غاندي ونشرحها . وهذه النقط الضعيفة هي مهاجمته للبرلمان الانجليزي والمحامين والاطباء والمدارس .

لم يَقُد المجلس البريطاني الذي يعمل منذ سبعة قرون ، كما نعلم ، المملكة المتحدة يوماً الى الهلاك . وهناك مؤسسات أخرى تنطبق عليها نعوت غاندي اكثر ، عندما يصف المجلس بالقحط والعهر . ولم يخلُ الامر من طغاة دمويين جعلوا من البرلمانات مسارح هي اقرب للسيرك منها الى البرلمانات .

اما المحامون والقضاة والأطباء والمربّون فيستحقون ، إن لم يكن دائماً ، فأحياناً ، الأجر الذي يتقاضونه والاحترام . وكثيرون من الرجال الأذكياء والشرفاء والمخلصين قد قدسوا

هذه المهن التي وجدت للخدمة دون الاستفادة والربح ، كما يوصمها صاحب مبدأ اللاعنف . وكان من الأفضل له لو انه هاجم المتعطلين عن العمل الذين يعيشون عالة على الآخرين والعسكريين الذين تتمنى الانسانية لو يحتفظون بصمتهم وجمودهم ، والتجار والمحتكرين والسماسرة والمقامرين الذين يبنون ثرواتهم على خراب الآخرين والافلاسات والأزمات ، ومثيري الاضطرابات من السياسيين الذين يبنون امجادهم على الفضائح والفوضى والقتل والحريق والتدمير ، وتجار الاسلحة والمسكرات والمخدرات التي التي تسبب جنون الآخرين وخراب بيوتهم وانهاء حياتهم ، وبائعي الكلمة وناثري الوعود والسخافات والفحشاء واللهو والاشياء التافهة المحرّفة ، وكل اولئك الذين يسلحهم المجتمع بما يلزمهم لسحق القريب وتضليله ونهبه بين تصفيق الجماهير وموافقتها وحشرجة الاعجاب من افواه الضحايا انفسهم .

* * *

ولكن يُخشى ان نظلم غاندي لقسوته على المحامين والاطباء والمربين ، اذا لم ندرك صدى رسالتهم السامية في نظره . والذي يراه منافياً للشرف عند أشرف من يتولون هذه المهن هو انهم يعتبرونها مهنة للكسب عوضاً عن اعتبارها رسالة تحيطها هالة من التقديس .

واخيراً يتكلم غاندي عن التجارب التي عاشها هو نفسه في هذه المهن الثلاث لدعم اقواله وتبريرها .

لقد عاش غاندي مهنة المحاماة طيلة عشرين عاماً ، وحاول

ان يكون محامياً متواضعاً شريفاً لا يخادع ولا يتكتم. واثنـاء اشتغاله بهذه المهنة بدأت فضائل غاندى تظهر ومصيره يتقرر .

ان مهمة المحامي هي في تجنب الدعاوى والقيـــام بالشروح اللازمة والمفاوضات للتوفيق بين المتخاصمين . وامام المحكمة عليه ان يكون الى جانب البريء دائماً للدفاع عنه . لسانه في خدمة الحقيقة وليس في خدمة الزبون الذي وكله .

واما القاضي فيجب ان يكون مثالاً للعـــدل والتجرد كي تصدر احكامه دروساً رادعة تحل القضايا المعلقة . واذا كان غير ذلك فانه يصبح عدّاداً آلياً لسنوات السجن وحبال المشنقة . وغاندي هنا عوضاً عن ان ينتقد النقص وعـــدم التجرد لدى رجال القضاء هاجم روح القانون الغربي نفسه ، والروتينيـــة القضائية .

وهذه الصلابة على الرغم من قوتها ، لم تدفعه الى ترك مهنته ، بل على العكس من ذلك ادّت به الى النجاح ، ولم تعرف يوماً ، مرارة الفشل ، طريقهااليه . وإذا كان قد اقفل مكتبه فلم يكن مردّ ذلك الى قرفه او يأسه ، بل من اجل الرسالة التي اخذها على عاتقه ، في انيكون محامي الشعب الهندي كله . واختـــار في سبيل ذلك مقعد المتّهمين وظلمات السجن .

وامّا الطب فقد كان يودّ امتهانه حباً بالحياة واحترامـــاً للطبيعة وإشفاقاً على المتألمين . ولكن الطب الغربي اثار هلعـــه بفظاظته واستخفافه ، وحمله على الهرب منه دائمـــاً حتى ولو تعرّضت حياته للخطر . وهو يروي كيف خلـّص ابنه بواسطة

علاج تجرّأ وركّبه هو بنفسه . وكيف أنّ امرأته كانت تنازع في أحـد المستشفيات فأعادها الى البيت وعالجها بنفسه فعوفيت. لقد رأيناه دائماً يعالج احد اقربائه او جيرانه . ولكن قبل كل شيء وجد لنفسه مفتاح الصحة وعاش، على الرغم من ضعف بنيته حتى الثمانين ولم يقربه الموت ، بل وضع الأشرار حداً لحياته عن طريق الاغتيال .

وهو يتكلم عن المستشفيات وكأنها امراض ، ولكنه عاد هو نفسه واسس مستشفىً في سفاغرام .

والطبيب بالنسبة لغاندي هـو الذي يشفي المريض بصرف النظر عن المرض وينقذه من العادات السيّئة التي اودت به الى المرض . وعلى الطبيب ان يفتش عن جـذور المرض التي تكمن — فيما عدا الحوادث — في الخطيئة والخطأ والجهل . هل هو تخمة في الأكل ، او نقص في التنفس ، أو إهمال في الهندام والنظافة، أو في التصور ؟ هل هو الإسراف في تعاطي المنكر أو الغضب يحرق الأحشاء؟ هل هو في الكسل أو الرذيلة التي تسبّب التعفّن؟ هل هو في البخل الذي يقبض أو الحسد الذي يسمم ؟

والطبيب الكاذب المأجور وخادم المرض ، يستخدم الدواء للقضاء على نتائج المرض دون ان ينبّـه المريض الى الاسباب التي أوصلته الى المرض ، فيستمر هذا في حياته الأولى فيتأكّل المرض جسمه يوماً بعد يوم، ويضطر الى العودة الى هذا الطبيب التاجر، ويذهب ليعود اليه من جديد . وامـا الطبيب الحقيقي الصادق فيستخدم المرض لتطهير اخاه الإنسان والعودة به الى الحيـاة

الفضلى .

وامّا بخصوص التعليم فليس اسهل من ارتكاب الخطأ في عدم الفهم . وبالامكان الاعتقاد ان غاندي يريد ان يبقي الجهل مخيماً على الشعوب . والواقع ان غاندي يفضل ان يعيش الشعب على تقاليده على ان تشوّش حياته وبيته في تعاليم غريبة عنه ولا حاجة له بها .

إنّ ما يرفضه غاندي هو فرض الحضارة الغربية على الطفل فرضاً . اما التربية فلا يرفضها . وبفَهْم مقاصد غاندي علينا أن نعرف انه كان من ابرز علماء التربية وانبههم ، يسبق عصره بكثير . والمدرسة التي اسسها في سفاغرام هي خير شاهد على ذلك . ،

والتربية ، بنظره ، تتخطى المدرسة وسني الدراسة وتدوم مدى الحياة أو اكثر .

***

ولنعد الآن الى حملته على البرلمان .

إن برلماناً بسيطاً خير من سلطة بدون برلمان ، هذا مايؤكده غاندي عن عقيدة . والبرلمان البريطاني هو من افضل البرلمانات ، إن لم يكن افضلها ، وهذا ما لم ينكره غاندي حسب اعتقادي ، ولكن بما أنه أقدم المجالس وأشهرها ، تحسده وتقلده المجالس البرلمانية الاخرى ، لما هو عليه من تقدّم بالنسبة اليها ، بسبب ذلك انصبّت عليه انتقادات غاندي . والمبادىء الديمقراطية الخالدة المتحررة ، كما يصفها الغرب ، هي التي قصدها غاندي في انتقاداته القاسية . وقد استهدف لها اول

ما استهدف ضلال التمثيل الشعبي وخطأه ، إذ أن المنتخبين في نظره لا يمثلون الشعب . ومن الوهم والضلال اعتقاد ذلك . ومخطىء ايضاً من يعتقد ان هؤلاء يجب ان ينفذوا ارادته .

وفي مقالاته كان غاندي يصرّ دائماً على وجوب استقلال القائد . فالقائد حسب اعتقاده وُجِد ليقود الشعب وليس ليُساقَ ويُوَجّه ، وتعرقل مسيره الاكثرية العددية. وهو نفسه كان يخضع مشروعاته لامتحان ضميره غير عابىء بالاكثرية . وكان لا يخاف من ان ينفرد في رأي ولو لم يشاركه فيه أحد . وأخطر المقررات التي اتخذها في حياته فكر فيها وقررها بنفسه دون ان يشرك فيها حتى اقرب المقرّبين اليه . وكان على أثر ذلك ينهض في الصباح ليعلن على الجماهير قراره ويدعوهم الى اتباعه للعمل على تنفيذ القرار ، على طريقة القائد العسكري أو الديكتاتور أو الحاكم المطلق .

فمفهوم السلطة عنده اذن ملكي ، او بكلمة أوضح أبوي . لذلك لم يحمل في حياته سوى لقب قَبِلَهُ بكل طيبة خاطر ، هو لقب « أب » . والعمل لمصلحة الشعب في نظر غاندي ليس معناه الاستجابة لارادة الشعب او الدفاع عن مصالحه ، بل العمل لخيره .

ويبقى غاندي تحرّرياً اكثر من اي تحرّري في الحكم ، بمعنى أنه صاحب مبدأ اللاعنف . ولا يقبل لنفسه ان يفرض ارادته على الشعب بالقوة . فاذا لم يتبعه احد واصل سيره وحده ، وقد يتوقف وينسحب وينتظر . واذا حصل انحراف قاصص نفسه

من اجل الذين خانوه ، وقد يوقف تنفيذ عمل على وشك الكمال كقصاص جماعي له ولتابعيه . ولكنـــه أحياناً كان يطلب من الشعب ما يطلب من نفسه .

ويبقى غاندي ديمقراطياً بمعنىأنه يؤمن أشد الايمان «بصوت الشعب» الذي هو «صوت الله» . وبوصفه فقيراً عاش بينالفقراء كان يدرك هذا الصوت في داخله دون واسطة اية مؤسسة . إنه اكثر ديمقراطية من اكثر الاشتراكيين تقدمية ، لأنــه رفض أن يكون له كسيد أية امتيازات . وفي الوقت الذي نجد فيه هوّة سحيقة بين الزعيم العمالي ، أو الرفيق المفوّض والرفيق العامل ، نرى المهاتما غاندي يعيش في القرية بين الفلاحين كواحد منهم ، إن لم يكن أفقرهم ، وذلك ليحقق ما ورد في الكتاب المقدّس: «من اراد منكم ان يكون سيداً فليكن خادماً للجميع» .

وبالنسبة الى غاندي ، هذا الرجل الذي يشتمل قلبه شفقة، من غير المحتمل أن يقبل بأن تكون : الحرب والسلام ، حيــاة الشعوب ، وجوع الفقراء ،مسائل تدور مناقشاتها في البرلمانات، وتخضع للتصويت الآلي المنافي للضمير .

ووجود الاجهزة الحكومية والادارية من آلة انتخابيـــة وتشريعية وتنفيذية وغير ذلك ، كل هذا رفضه غاندي لــكثرة ما وجد فيه من كلوح وتجهم يفوق تجهم القطار .

وفي المناسبة نذكر ان غاندي قد ركب القطار دون تردد ، ليس لأن وجود القطار لم يزعجه ، بل لانه كان يعتقـد بوجوب احتمال غير المرغوب فيه حتى تتيح الفرصة التخلص منه . ولذلك

استخدم غاندي القطار في جولاته السياسية وتنقلاته .

وأما «فينوبا» احد تلاميذه فقد رفض بإصرار ان يستخدم القطار ، وأدار ظهره« لآلة الديمقراطية الشكلية» . وكلا الاثنين أقرّا ، مع ذلك ، الديمقراطية المتحررة واستخدماها في احاديثهما وخطبهما ، لأنهما رأيا ان الضرورة تقضي باستخدام اللغة التي يفهمها العصر . ولتلافي أي سوء تفاهم ، أرى انه من الواجب إظهار المعنى غير العادي الذي اعطياه لذلك . وهذا ما لم يحدث احياناً إن لم يكن ابداً .

ولم تحرّك فصاحة الخطباء الفارغة والأنظمة الخيالية فيهما ساكناً.

«انا لا اعتقد بالمنظمات ولا اهتم بذلك» إن فيها امناء للسر ومكاتب وصناديق ، ولكن ليس فيها قلب . ان الانسان هو مَن أفتش عنه ، ذاك الانسان الذي تختلج الرأفة في قلبه»(فينوبا سنة ١٩٥٧) .

واذا اراد الباحث ان يتعمق في المذهب الاستقلالي في نظر غاندي ، فعليه أن يقرأ الى جانب هذا الكتاب كتاباً مماثلاً « لفينوبا » اسمه : « سواردج شاسترس » . وكلمة سواردج تعني الاستقلال ، ولكن هذه الكلمة لا تحتوي ، كما في الفرنسية ذاك المعنى السلبي ، بل تعني الدولة التي تخص المواطن ذاته ، وتتيح له السيطرة على ذاته .فالسيطرة على النفس اذن هي أساس الحرية ، وهذا ما ينقل المشكلة من الصعيد الاجتماعي الى الصعيد الروحي. والحرية السياسية والاستقلال الوطني هما سلبيان ووهميان، وليس هناك من شيء حقيقي سوى سيطرة الانسان على نفسه .

وملكوت السماوات ليس وهماً ونظاماً ولا تجريداً . فقد قيل في البدء : ملكوت السماوات ، ولم يقل احد ، الاشتراكية المكتملة ، او الفردوس الميكانيكي . انه ليس وهماً ولا تجريـداً ولا نظاماً ، إنه حياة . ملكوت السماوات كربّ العائلة وكحبة لخردل . إنه في الأرض كما هو في السماء ، انه حياة . إن ملكوت السماوات في داخلنا وفي قلبنا .

* * *

وهكذا اكون ، كما اعتقد ، قد شرحت الهنات والنواقص والنقط الضعيفة ، الموجودة في هذا الكتاب . واظهرت ما في النقط الضعيفة من عظمة وسموّ وقوّة .

وهل من داع أن اتكلم بعد ذلك عما فيها من جمـال ، عن الصفحات الخالدة والوسائل والأهداف التي هي كالبذرة والشجرة . عن التاريخ ، حروبه وجرائمه ؛ هذا التاريخ الذي ينظر اليه لعرقلة سير الأمور الطبيعي ؛ عن العصيان المدني ، والخرافة التي تقضي بأن الناس مجبرون على الخضوع الى قوانين مجحفة فاسدة . أو عن اللاعنف والشجاعة فى الفصل الثاني عشر .

« إن هذا لا يتطلب تدريباً عسكرياً ولا تمريناً على المصارعة اليابانية .

« إن السيطرة على النفس هي وحدها لازمة لذلك ، ومن يتحقق له هذا الأمر يصبح حراً كملك الغابة ، وتخترق نظراته الحادة العدوّ » ...

كلا لن اتكلم ، بل سأتركك على المدخل لأنني أطلت الكلام فعذراً .

كلمة تفسيرية

انني سعيد الحظ لأن كتابي الصغير هذا ، الذي صدر باللغة الكوجراتية ، قد وجد هذا الصدى العميق على الرغم من صعوبة مهمته . وقد نشر أولاً على صفحات «الرأي الهندي» في جنوبي افريقية وكتبته عام ١٩٠٨ ، ابان عودتي من انجلترة الى جنوبي افريقية ، جواباً على اساليب العنف التي كانت متبعة في كل من الهند وجنوبي افريقية في ذلك الوقت . وفي لندن كنت قد اتصلت واجتمعت بجميع الفوضويين الهنود المعروفين . وقد اعجبتني شجاعتهم ولكنني شعرت كم خدعتهم حميتهم في الاتجاه . وفهمت ان العنف لا يمكن ان يكون فيه الحل لمشاكل الهند . لأن الحضارة الهندية في حاجة الى سلاح امضى لحمايتها من سلاح العنف . وفي جنوبي افريقية كانت حركة « ساتيا غراها » قد بدأت نشاطها منذ عامين ، ولكنها اتسعت الى درجة اصبحت قادراً معها ان اتكلم عليها وأوليها بعض الثقة . وما كتبته عنها لاقى نجاحاً كافياً لأن يطبع في كتيب . وقد وزع هذا الكتيب

في الهند ولفت الانظار ، حتى ان حكومة بومباي بادرت الى مصادرته ومنعت توزيعه . وجواباً على ذلك نشرت ترجمة له ، متوخياً افهام اصدقائي الانجليز فحوى هذا الكتاب .

وفي نظري انه من الممكن وضعه في ايدي الاحداث ، لانه يعلم استبدال البغض بالحب ، والعنف بالتضحية ، والقوة الجسدية بالقوة الروحية . لقد ظهر منه عدة طبعات واشير على الجميع بقراءته . وانني لااسحب كلمة مما قلته فيه فيما عدا تلك التي تخص احدى الصديقات .

هذا الكتاب هو حكم قاس على «الحضارة الحديثة» وقد كتبته عام ١٩٠٨ . ومنذ ذلك الوقت والتجارب والايام تزيدني إقتناعاً بصحة ما قلت . واذا ما قرّرت الهند ان تحارب ضد «الحضارة الحديثة» فهي رابحة حتماً .

ولكنني احذر القارىء من الاعتقاد بأنني اقصد اقامة استقلال فوري في الهند . وذلك لانني اعلم بأن الهند لم تنضج بعد . وتأكيد كهذا ، من الممكن ان يكون في غير محله ، ولكن هذا هو رأيي . وانا شخصياً أعمل لتحضير الاستقلال كما وصفته . ولكن عملي كعضو في جسم ، يميل بدون شك الى إقامة استقلال برلماني كما يشتهي الشعب الهندي . فأنا لا أرغب في ألغاء الخطوط الحديدية والمستشفيات ، ولكن زوالها يسرّني . فلا الخطوط الحديدية ولا المستشفيات هي علامة الحضارة ، بل في امكاننا القول بأنها شرّ لا بد منه . وهي لا تزيد شيئاً على العظمة الاخلاقية لشعب من الشعوب . وأنا لا ارغب في الغاء المحاكم

نهائياً ، العلم بأنني اتمنى ذلـــك بحرارة . وكذلك الآلات والمصانع . لأن ذلك يتطلب نفساً بسيطة ومتقشّفة . وهذا ما ليس متوفراً في شعوب اليوم .

والقسم الوحيد من البرنامج الذي وضع موضع التنفيذ اليوم هو : اللاعنف . ومـــع الأسف لم يكن كاأردته أن يكون في هذا الكتاب . لأنه لو طبق كما اردته لحصلت الهنـــد على استقلالها في يوم واحد . ولو تبنت الهند مبدأ الحب كعامـل حيوي لديانتها ، وأدخلت ذلك في سياستها لجاءهـا الاستقلال دون عناء ، قادماً من السماء . إلا أنني على يقـين من أن ذلك ما زال بعيد المنال !.

لقد كتبت هذا التعليق لأنني لاحظت أنهم يأخذون بعض المقاطع من كتابي للتقليل من نفوذ الحركة القائمـــة . حتى انني قرأت بعض الكتابات التي تدسّ عليّ وتتهمني بأنني ألعب لعبة مزدوجة مستغلاً الاضطراب الحالي لتلقين افكاري ، والقيـام بتجارب دينية على حساب الهند . وفي إمكاني التأكيـد فقط ، جواباً على كل ذلك ، بان « الساتياغراها » هي فوق كل هـذه الإفتراضات . إنها لا تحتفظ بشيء ولا تخفي شيئــاً . وبعض الطرق الحياتية التي وضعت في « هند سواردج » (استقـلال الهند) قد وضعت موضع التنفيذ . وليس هناك ما يمنـــع تطبيقها كلها . ولا يجوز إخافة الشعب الهندي باقتطاع فقرات من كتابي ، لا علاقة لها بمشكلة الهند الحاضرة .

يوند إنديا ، كانون الثاني (يناير) ١٩٢١

م. ك. غاندي.

ملحوظة أولية

لو ُطلب الي إعادة كتابة هذا الكتاب ، لكان في إمكاني أن أصحح اسلوبي اللغوي . ولكن لا شيء مما عشته خلال هذه السنوات الثلاثين العاصفة، يدفعني الى تغيير نظرتي الى الأشياء . وعلى القارىء أن يعلم بأن ما أقوله هنا هو محاورة حقيقية جرت بيني وبين عمّال كان احدهم من الفوضويين البارزين . وليكن معروفاً أن المبادىء التي اعرضها هنا لاستقلالنا ، قد أوقفت التردّي الأخلاقي الذي كان يسود هنود جنوبي افريقية .

ويستطيع القارىء طبعاً أن يجبه حججي وبراهيني بآراء معارضة لصديق عزيز .. لم يعد كذلك مع الأسف .. وفي نظره نحن هنا في صدد عمل مهووس .

سيغاون

١٤ تموز (يوليو) ١٩٣٨

م. ك. غاندي

١

المؤتمر وأعضاؤه

القارىء : في هذه الحقبة يسود الهند رغبة في الاستقلال ، وهذه الرغبة جماعية ، لأن المواطنين يتمنون ذلك بحرارة . وفي جنوبي افريقية ايضاً رغبة مماثلة نشعر بها . والهنود قد عيل صبرهم للحصول على حقوقهم . فهل في امكانك ان توضح لي رأيك في هذه الحالة ؟

غاندي : لقد أجدْتَ في طرح السؤال ولكن الجواب عليه ليس سهلاً . اذ ان اهداف الصحيفة متعددة ، أولها معرفة نفسية الشعب والتعبير عنها ، وثانيها احياء المشاعر المرغوب فيها عند هذا الشعب ، وثالثها كشف الاخطاء الشعبية بجرأة . إن الجواب على سؤالك يضم هذه الامور الثلاثة مجتمعة . والى درجة ما يجب أن تباح لإرادة الشعب التعبير عن نفسها . وهناك مشاعر قد تحتاج الى تشجيع ، واخطاء تفتقر الى تشهير . ولكنك قد طرحت عليّ سؤالاً وواجبي ان ارد .

القارىء : هـل تعتقد بأن هذه الرغبة في الاستقلال قد أوحيت الينا ؟

غاندي : لقد نشأ عن هذه الرغبة المؤتمر الوطني ، وليس عرضاً ان نختار للمؤتمر صفة «الوطني» .

القارىء : ليس الامر كذلك ، لأن الهند الجديدة ،كما يظهر ، تتجاهل المؤتمر الذي تعتبره وسيلة لاستمرار القانون البريطاني .

غاندي : ليس هناك ما يبرر هذا الرأي ، فلو لم يُعدّ العجوز الكبير «تيلاك» الجو المناسب ، لما استطاع شبابنا اليوم التحدث عن الاستقلال ، وكيف في امكاننا ان ننسى ما كتبه مستر «هوم» ليدفعنا الى العمل ، والجهود التي بذلها ليحرّكنا للوصول الى اهداف المؤتمر ؟. وقد ضحى السير «وليم ويدربرن» بأمـواله وصحته وفكره في سبيل قضيتنا . وما زالت كتاباتـه تحتفظ بقيمتهـا حتى اليوم . ولتحضير الهند للعمل وإعدادها فضّل الاستاذ «غوكهال» الفقر وضحى بعشرين سنة من حياته ، وما زال الى اليوم يعيش في الفقر والحرمان . والقاضي بدرالدين طيبجي هو الآخر ، احد الذين ، عن طريق المؤتمر ، عملوا لخلق جو مناسب لتفتّح فكرة الاستقلال . وكذلك في البنغـال ومدراس والبنجاب وكثير من المناطق الاخرى ، برز رجـال يحبون الهند . كما انه يجب ألا تنسى ان المؤتمر يضم اعضاء مـن الانجليز .

القارىء : هيه ! إنك تبتعد كثيراً عن سؤالي . لقد سألتك عما تعتقده بشأن استقلال الهند ، وانت تتكلم عن الاجانب .

أنا لا ارغب في سماع شيء عن الانجليز وانت تحدثني عنهم . وبما أن الامر كذلك فأعتقد بأن تفاهمنا عسير . وذلك لانني أرغب في حصر الموضوع في استقلال الهند،وأي موضوعآخر لا يهمني .

غاندي : إنك مستعجل جداً ، وهذا ما لم أسمحه لنفسي . إصبر قليلا إذا أردت ، وستحصل على الجواب الذي تريـــد . وتذكر المثل القائل : « الشجرة لا تنمو في يوم واحـــد » . وعملك إذ قطعت عليّ الكلام لتطلب إليّ ألا اتحدث عن اولئك الذين يريدون الخير للهند ، يعني بالنسبة لك على الاقل ، ان استقلال الهند ما زال بعيد المنال . واذا كان يوجد الكثير من امثالك فلن نتقدم مطلقاً . إصغ جيداً لما أقول لك هنا .

القارىء : ارى انك تدور حول السؤال كأنك تحاول تجنبه وهؤلاء الذي تصفهم بأنهم يريدون الخير للهند ، أعتقد انهم على العكس من ذلك . فما الفائدة من الاصغاء لـــك إذن وانت تتحدث عن هؤلاء ؟ وهذا الذي تدعوه أباً للشعب ، ماذا فعل ليستحق هذا اللقب ؟ لقد قال: «ان الحكومةالبريطانية تنصفنا ولذلك من الواجب علينا ان نتعاون معها » !

غاندي : قبل كل شيء ، اسمح لي ان اقول لك بكل أدب انه من العار المخجل ان نسمعك تتحدث بخفة محقراً رجلنـــا الكبير. انظر ببساطة لما فعل : لقد ضحى بحياته فيسبيل الهند. وما نعرفه اليوم ، هو الذي علّمنا اياه .ان دادابهـــي (أب الشعب) هو الذي أوضح لنا كيف يستغلنا الانجليز . ومـــا يضيره اذا كان حتى اليوم لا يزال يثق بالشعب الانجليزي ؟ هل

علينا ان نقلل من احترامنا لابي الشعب اذا كان الشباب يدفعوننا الى تخطيه ؟ وهل هذا يعني اننا ابعد نظراً منه ؟ بالعكس ، انه لمن الحكمة ان نحتفظ بالسلسلة التي اتاحت لنا ان نتقدم . وهذه السلسلة اذا انتزعنا حلقة منها تفككت . وعندما نخرج من طور الطفولة للدخول في طور الشباب لا يجوز في حال من الاحوال ان نحتقر طور الطفولة ، بل على العكس يجب ان نتذكره بحنان . واذا كنتُ قد درست كثيراً على يد احد الاساتذة موضوعاً ما ، ثم اتخذت ما لقنني اياه قاعدة ، وانطلقت للاستزادة من الموضوع ، فهذا لا يعني انني اقدر منه ، بل يفرض علي الاستمرار في احترامه . هذه هي بالضبط حالة « عجوزنا الكبير » وعلينا ان نعترف بأنه هو باعث الروح القومية فينا .

القارىء : لقد اجدت الكلام الى درجة انك استطعت ان تُفهمَني لماذا يجب علينا ان نحترم أب الشعب ، وبدونه وبدون امثاله لما دبت فينا الروح التي تحركنا وتقودنا اليوم . ولكن هل باستطاعتنا ان نضع الاستاذ غوكهال في نفس المنزلة ؟ لقد كان غوكهال صديقاً حميماً للانجليز ، ودعانا لأخذ الكثير عنهم . ومن اقواله : « قبل التحدث عن الاستقلال علينا ان نسعى للحصول على رزانة الانجليز السياسية » . ارجوك كفاني ما قرأت من احاديث غوكهال .

غاندي : كفاك لأنك لا تطيق صبراً . ونحن نقول عن الذين يتبرّمون من تـؤدة اقاربهم ، ويطلبون إليهم أن يجاروهم في السرعة ، بأنه ينقصهم الإحترام اللازم تجاه هؤلاء الأقارب .

والأستاذ غوكهال هو بمثابة اب لنا . فكيف تريدنا ان نحمّله أكثر من طاقته ليسرع معنا . ولا يجوز لبلد يسعى إلى الحصول على الحرية والاستقلال أن يحتقر الاجداد . ونكون نحن غير جديرين بشيء اذا لم نحترم مَن هم اكبر منّا . إنّ العقول الناضجة الراجحة هي التي تعرف كيف تضبط نفسها ، أمّا العقول الفتيّة المتلهّفة فلا ... ومن ناحية ثانية ، كم يبلغ عدد اولئك الذين نذروا أنفسهم لتثقيف الهند؟ وأنا اعتقد أنّ دوافع الاستاذ غوكهال كانت نظيفة ، وكلها تحدوها الرغبة الصادقة لخدمة الهند. إنه مخلص لبلده الى درجة أنه مستعد للتضحية بحياته في سبيل الهند ، إذا كان ذلك ضرورياً . لم يتملق الاستاذ أحداً في اقواله وكل ما صدر عنه ، كان اعتقاداً راسخاً بأنه الحقيقة . ولذلك يجب علينا ان لا نبخسه حقه .

القارىء : هل أفهم من أقوالك أنه علينا ان نقتفي كل خطوات الاستاذ غوكهال ؟ !

غاندي : أنا لم أقصد ذلك ، وإذا كان ضميرنا يوحي لنا عكس ما يريد الاستاذ ، فالاستاذ نفسه ينصحنا بأن نستجيب الى صوت ضميرنا وليس له ، ولكن في الدرجة الاولى يجب ان لا نستخفّ بإنتاج الاستاذ ، بل علينا أن نقرّ بأنه أعظم منا ، وبأن ما يمكن عمله اليوم في سبيل الهند ليس شيئاً يُذكر ، أذا ما قيس بما فعله هو . كثير من الصحف تهاجمه وتحقّره ، وواجبنا أن ندافع عنه . فرجال أمثال الاستاذ غوكهال يجب ان نعتبرهم الاعمدة التي يقوم عليها استقلال الهند . ومن اسوأ العادات الاعتقاد ان نظرتنا

وحدها هي الصائبة ، وما عداها خطأ، وأنّ الذين لا يفكرون مثلنا هم اعداء بلدنا .

القارىء : لقد بدأت أفهم قليلاً طريقتك في النظر الى الغير، ولكن يلزمني بعض الوقت والتفكير حتى أتقبّلها أكثر . ومع ذلك فليس في إمكاني أن اتصوّر ماذا يمكنك أن تقول عن المستر « هوم » والسير « وليم ويدربرن » ؟

غاندي : إنّ القاعدة ذاتها تنطبق على الانجليز كما تنطبق على الهنود . فأنا لا أوافق أبداً على القول بأن كل الانجليز عاطلون ، فكثيرون منهم يريدون الاستقلال للهند . وإذا كان الانجليز يعتقدون أحياناً بأنهم من طينة غير طينة الشعوب، وبأنهم شعب مختار ، فليس معنى ذلك أنّ كل الانجليز سيئون . ونحن الذين نطالب بالعدالة : علينا ان نعدل مع الآخرين. فالسير وليم لا يريد شراً للهند وهذا يكفينا . ومع تقدّمنا ، سنرى انّ الهند تسير بخطىً أسرع نحو التحرر، اذا كنا منصفين عادلين. وعلى العكس تماماً ؛ إذا اعتبرنا الانجليز اعداء لنا ، فسنؤخر موعد استقلال الهند ، بينما اذا انصفناهم فقد نستفيد من مساندتهم لنا .

القارىء : كل هذا ليس فيه شيء من المنطق ، إذ ان مساندة الانجليز واستقلال الهند هما أمران متناقضان . وكيف في امكان انجلترة ان تقر بحق الهند في الاستقلال ؟ أنا لا اطلب اليك ان تجيبني حالاً ، لأن ذلك يتطلب بعض الوقت للتفكير . وقد تفهمني اكثر عندما تشرح لي ما هي في اعتقادك افضل خطة للحصول على الاستقلال ؟ وقد أزعجتني بكلامك عن المساعدة

البريطانية ، فلذلك ارجوك ان تترك هذا الموضوع جانباً .

غاندي : هذا ما كنت انويه بالضبط ، فأنا لا يهمني ازعاجك لأنني افضل أن ابدأ معك بما لا ترغب ، وواجبي ان احاول بصبر تحريرك من اوهامك .

القارىء : إنني اقدر جملتك الاخيرة ، لأنها تشجعني على الإفصاح بما يجول في خاطري . ولكن ما زال هناك امر يقلقني لانني لم أفهم حتى الآن ، على اي شيء بنى المؤتمر اسس الاستقلال .

غاندي : لِنرَ ذلك معاً . فقد ضم المؤتمر اعضاء من مختلف انحاء الهند ، وأحيى فيهم الروح للقومية ، وهذا ما تنظر اليه الحكومة شزراً . وأصرَّ المؤتمر دائماً على المطالبة بأن يخضع الدخل والنفقات لمراقبة الشعب . وقد تمنى دائماً للهند حكومة مستقلة كتلك التي تألفت في كندا . هل يمكن ان نحصل على الاستقلال أم لا ؟ هل نرغب فيه أو لا نرغب ؟ هل هذه أعز امنية عند الهنود ؟ هذه اسئلة اخرى وواجبي يقضي فقط بأن اوضح ان المؤتمر قد اتاح لنا ان نتذوق الاستقلال بكل حلاوته . واذا أنكرنا هذا الشرف فليس معنى ذلك فقط اننا جحودون بل سنؤخر ايضاً تحقيق اهدافنا ، واعتبار المؤتمر منافياً لازدهار البلد يمنعنا من استخدام هذه المؤسسة .

٢

تقسيم البنغال

القارىء: وفقاً لطريقتك في عرض القضية يبدو، في الواقع، أنه من الحق القول بأن المؤتمر هو اساس استقلال الهند. ولكنك تعود وتقرّ بأنه ليس الاساس الحقيقي، فإلى ما يعود ذلك الأساس ؟

غاندي : إن البذار مطمور دائماً وعمله يتم تحت الارض، وقد يذوب هو نفسه ولا يبقى إلاّ الشجرة التي نبتت منه. وهكذا الأمر بالنسبة للمؤتمر. وما تسميه الاساس الحقيقي يعود الى ذلك اليوم الذي تمّ فيه تقسيم البنغال على يد اللورد « كيرزون ». لقد حاول سكان البنغال اثناء التقسيم مناقشة اللورد الذي أعمته بهرجة السلطان، فرفض الاستماع اليهم، لأنه كان يعتبر بأن الهنود لا يصلحون لشيء، ولا يحسنون سوى الثرثرة. وكان يستعمل الشتائم. وقد نفذ قراره في التقسيم على الرغم من المعارضة الجماعية التي لاقاها من السكان. والواقع أن

ذلك اليوم كان بداية تفسّخ الامبراطورية البريطانية . وكانت هذه اعنف صدمة تلقتها السلطات الانجليزية . وهذا لا يعني أن الظلامات التي لقيتها الهند في مواقف أخرى تقل أثراً عن تقسيم البنغال . فالضريبة على الملح مثلاً وكثير غيرهما مما جاء بعد ذلك كان له الاثر السيىء في الشعب الهندي . غير ان الشعب بسبب التقسيم كان على استعداد للمقاومة ، بعد أن نمت فيه المشاعر القومية . وكثيرون من القادة البنغاليين كانوا مستعدين للتضحية بحياتهم وبكل شيء في سبيل البنغال . لقد كانوا يعرفون قوتهم ، ولذلك تحقق التفافهم الرائع يداً واحدة في وجه الطغاة ، ولم تعد التهدئة لتنفع معهم . قد يعاد توحيد البنغال ويدفن مشروع التقسيم ، ولكن شيئاً واحداً يبقى ولن يكون له دواء ، وهو التفسخ الذي أصاب جسم الامبراطورية العجوز ، وما زال يزيد في الاتساع من ذلك الوقت . والآن وقد استفاقت الهند ، فمن العسير أن تعود الى سباتها . والمطالبة بإلغاء قرار التقسيم تعني المطالبة بالاستقلال . وهذا ما كان يعلمه جيداً قادة البنغال بينما كان يشكك فيه الانجليز . ولذلك بقي التقسيم ، ورويداً رويداً تعالى البنيان القومي في الهند وأخذ شكله . إن الوطن لا يتم بناؤه في يوم واحد بل يتطلب ذلك سنوات عديدة .

القارىء : ما هي إذن ، في اعتقادك ، نتائج التقسيم ؟

غاندي : حتى الآن عندما تحصل ظلامة ما ، علينا ان نرفعها الى الملك للمطالبة بتحقيق العدل ، واذا لم تصلح الامور فعلينا

إما ان نقف عند هذا الحدّ وإما ان نرسل عرائض الاحتجاج . ومنذ التقسيم والناس يعتقدون بأن هذه العرائض يجب أن تساندها القوة والاستعداد لتحمل الألم . وهذه النفسية الجديدة تولدت على اثر التقسيم ، وجاءت نتيجة مباشرة له . وقد ظهر ذلك بوضوح ، على صفحات الصحف بصورة خاصة ، وما كان يقوله الناس في الخفاء أصبح يقال اليوم في العلن . وعلى اثر ذلك رأت النور حركة « السوادشي » (الاستقلال الاقتصادي) . وكل اولئك الذين كانوا يهربون لمجرد رؤية الانجليزي أصبحوا اليوم يواجهونه بدون خوف ولا وجل ، ويعلنون استعدادهم للدخول في معارك معه قد تقودهم الى السجن . وكثيرون من خيرة ابناء الهند حُكم عليهم بالنفي ، وهذا الحدث يسجل تقدماً كبيراً بالنسبة الى الوقت الذي كانت فيه عرائض الاحتجاج هي كل شيء . وهكذا تكون النفسية الجديدة قد عرفت طريقها الى الشعب الهندي بعد ان رأت النور في البنغال ، وامتدت شمالاً حتى البنجاب وجنوباً حتى رأس كومورين .

القارىء : هل هناك نتائج اشد أثراً ؟

غاندي : اذا كان التقسيم قد اوجد صدعاً في بناء الامبراطورية البريطانية ، فالهند قد تلقت الصدى ايضاً . والاحداث الكبرى تولّد دائماً نتائج مهمة . لقد انقسم قادتنا بسبب التقسيم الى طائفتين هما المعتدلون والمتطرفون ، او المتمهلون او المتسرعون . والبعض يطيب لهم ان يسموا المعتدلين حزب الجبناء والمتطرفين

حزب الجريئين . وكل منا يفسر هاتين التسميتين على هواه حسب مفاهيمه الخاصة . ومع ذلك تبقى هناك حقيقة واحـــدة هي العداوة بين هؤلاء ، اذ ان كلاً منهم يفتش عن اسباب واعذار ليبتعد عن الآخر . وكادت تحصل معركة من جراء ذلك أثنــاء انعقاد مؤتمر (صورات) . وانا اعتقد بأن هذا التناحر و التباعد ليس من مصلحة البلد ، وأنا على يقين ايضاً بأنه موقف لا يدوم وهذا منوط بقدرة القادة على البقاء والاستمرار .

٣

استياء وحركة

القارىء : انك تعتبر اذن التقسيم سبباً من الاسباب التي ايقظت الروح القومية في الهند ، فهل تجد خيراً في التململ الذي الذي نتج عنه ؟!

غاندي : عندما يستيقظ المرء يتثاءب ويمدد اعضاءه متململاً، أي انه يلزمه بعض الوقت لكي يصحو جيداً . والتقسيم الذي سبب هزة في البلاد لم يكن كافياً ، إذ ما زالت هذه في حاجة الى فترة من الوقت للخروج من فتورها وخمودها . ونحن اليوم نتململ وفي امكاننا ان نعتبر هذه المرحلة ضرورية وطبيعية، قبل الوصول الى مرحلة اليقظة التامة . وشعورنا بالتململ يساعدنا على تخطي هذه المرحلة . ولدى يقظتنا سوف لن نبقى في حالة الغيبوبة. وحسب مزاجنا سنسترد ،على درجات، جميع حواسنا. هذا ما سينتج عن التململ الحالي الذي لا يرغبه احد .

القارىء : وما هو الوجه الآخر للتململ ؟

غاندي : في الحقيقة إن التململ هو النتيجة الحتمية لحالة الاستياء الحاضرة . واثناء الحقبة الاولية للمؤتمر كان الاستياء هو موضوع الكلام الوحيد . وفي الواقع ان الاستياء مفيد جداً لان المرء طالما انه راض عن حالته فليس في الامكان اقناعه بتغييرها . ولذلك ، فكل اصلاح يسبقه استياء . والمرء لايتخلى إلا عما لا يحب . والاطلاع على ما كتبه الهنود والانجليز خلق فينا هذه الموجة من الاستياء . وهذا الاستياء خلق التململ فالاضطرابات فالنفي والسجن والتشريد والموت . وهذه الحالة ستستمر ، ويجب أن تستمر ، لأن في ذلك بشائر حسنة ، غير انها قد تقود الى اسوأ العواقب .

٤

ما هو الاستقلال ؟

القارىء : لقد فهمت الآن كيف استطاع المؤتمر أن يخلق من الهند وطناً . وكيف أنّ التقسيم نبّه الشعور القومي ، وكيف ان الاستياء والتململ عمّا انحاء الهند . واودّ الآن ان تزيدني معرفة بأفكارك عن الاستقلال ، لانني اخاف الاّ يكون لهذه الكلمة نفس المعنى عند كلينا .

غاندي : من الجائز ان يكون الامر كذلك . انت وانا وكل ابناء الهند نستعجل الاستقلال ، ولكننا لسنا متأكدين مما يعنيه الاستقلال بالضبط . فالحديث كثير عن وجوب طرد الانجليز من الهند ، ولكن ما من احد كما يظهر ، يعي جيداً لماذا يجب طرد الانجليز إذا ما استجابوا لكل مطالبنا ؟

القارىء : إنّ جلّ ما اتمناه هو ان اراهم يخرجون من الهند فإذا كان هناك من وسيلة تجعلهم ان يستجيبوا الى هذه الامنية وينسحبوا من البلد ، ويبقوا في نفس الوقت ، فأنا لا ارى مانعاً

في ذلك . والذي نفهمه بكل بساطة هو ان كلمة « ذهب » في لغتهم تعني « بقي » .

غاندي : حسناً ، ولنفرض ان الانجليز انسحبوا فماذا ستفعل بعد ذلك ؟

القارىء : لا استطيع الآن ان اجيب على هذا السؤال لأن الامور مرهونة بأوقاتها . واذا خرجوا ، حسب تقديرك ، اعتقد اننا سنحتفظ بدستورهم ونحل مكانهم في الحكم ، واما اذا انسحبوا فوراً بناء لطلبنا فعلينا ان نعدّ على جناح السرعة جيشاً لحماية البلاد وصيانة الامن . وبعد ذلك من السهل استلام مقادير الحكم.

غاندي : انت ترى الامور هكذا واما انا فلا . وسوف لن ادخل معك في نقاش الآن حول هذا الموضوع . بل سأجيبك على سؤالك ، وسأفعل ذلك اذ أطرح عليك بدوري بعض الاسئلة . لماذا تريد طرد الانجليز ؟

القارىء : لأن حكمهم للهند افقرها . وسنة بعد سنة يسرقون ثرواتنا ، ويحتفظون بالمراكز الحساسة والمهمة في الدولة ، ويستعبدوننا ، انهم يحتقروننا ويشتموننا ولا يشاركوننا مشاعرنا .

غاندي : واذا كفوا عن امتصاص ثرواتنا واصبحوا محبوبين وأدخلونا في جهاز الدولة في المراكز الحساسة ، فهل ستستمر في اعتبارك بأن وجودهم مضر ؟

القارىء : هذا السؤال ليس له معنىً ، لأنه يشبه الى حد بعيد ذاك الذي يسأل : هل مُجالسة النمر خطرة إذا غيّر هذا

الأخير طبيعته . انني اعتبر تساؤلاً كهذا مضيعة للوقت. وعندما يتغيّر النمر يتغيّر الانجليز ، وتغيير هـــذا وتغيير ذاك أمران مستحيلان ، ويجب أن نكون على أقصى درجات الغباوة لنعتقد أن ذلك ممكن الحصول .

غاندي : لنفترض بأننا حصلنا على حكومة مستقلة تشبه التي في كندا أو في جنوبي افريقية ، فهل نكون قـــد وصلنا الى الهدف المنشود ؟

القارىء : وهذا السؤال أيضاً لا معنى له ولا فائدة منه . فإننا لن نصل إلى ذلك الوضع إلا باستلامنا السلطات ذاتهـا ، وعندئذ في قدرتنا أن نستظلّ علمنا الخاص ... على الهنـد أن تتبع خطوات اليابان ، ويجب أن يكون لنا اسطولنا الخـاص وجيشنا ليتألـّق نجمنا ، وعندئذ تستطيع الهنـــد أن تُسمِع صوتها في انحاء المعمورة .

غاندي : لقد رسمت لذلك صورة جميلة ، والواقع أننا نريد النظام الانجليزي دون أن يكون عندنا إنجليز ، وتريدنا أن يكون لنا طبيعة النمر دون ان يكون هنا نمر . أي انك تريد الهند انجليزية . وعندما يتم ذلك ينقلب إسم « هند ستان » الى « أنجلستان » . كلا ليس هكذا اريد الاستقلال .

القارىء : لقد عرضت لك الصورة التي افهم بها الاستقلال. واذا كان الذي تعلمناه له بعض القيمة ، وإذا كانت اعمال « سبنسر » و « مل » وغيرهما لها اهميتها ، وإذا كان البرلمان الانجليزي هو ابو البرلمانات ، فإنني اعتقد أنه علينا ان نقلد الشعب الانجليزي

حتى يصبح لدينا غـــير محتمل وجود اي اجنبي في بلادنا شأن الانجليز انفسهم . وما فعله الانجليز في بلادهم لم يحصل مثله في اي بلد آخر . ولذلك يكون من الفطنة والحكمة إقامـــة بعض المؤسسات المشابهة لمؤسساتهم . واود الآن سماع رأيك في ذلك .

غاندي : رويداً ، رويداً . تسلح بالصبر ، ستفهم رأيي في ذلك من خلال نقاشنا هذا . إلا انني اقول لك انـه من العسير جداً عليّ فهم حقيقـة الاستقلال وطبيعته ، الأمر الذي ظننته انت في غاية السهولة . ولذلك أكتفي الآن بالإيضاح لك أن ما تسميه استقلالاً هو شبح استقلال .

٥

الحالة في بريطانيا

القارىء: أستنتج من ملحوظتك أنك تعتقد أن شكل الحكم البريطاني لا يفي بالغرض المطلوب ولا يستحق ان نقلده .

غاندي : ان استنتاجك له ما يبرره . وحالة انجلترة الحاضرة يرثى لها . وأرجو الله ان لا تصل الهند الى مثل هذه الحالة يوماً . وهذا الذي دعوته ابا البرلمانات هو أشبه بكائن عقيم او بغي . إنّ هاتين الصفتين تثيران الاشمئزاز ولكنهما تصيبان الهدف وتفيان بالمقصود . والبرلمان نفسه ، على الرغم من كبر سنه يعترف بأنه ، حتى الآن ، لم يقم بعمل مشرّف . ولذلك شبهته بالكائن العقيم . والوضع الطبيعي لهذا البرلمان هو أنه لا يقدر على العمل ما لم يأته الوحي والأمر من الخارج . وهو بغي لأنه خاضع لسيطرة وزراء يتغيرون بين حين وآخر . اليوم مستر « أسكيث » وغداً قد يكون « بلفور »

القارىء : إنك تسخر الآن ، وكلمة « عقيم » لا تُطبَّق .

والمجلس المنتخب من قبل الشعب يجب أن يعمل بتوجيه الشعب . وهذا من طبيعته ·

فاندي : انت مخدوع . لنتفحّص ذلك عن كثب . مبدئياً يمكن القول أنّ أفضل الناس يجب أن يصلوا الى البرلمان ، بعد ان يختارهم الشعب . وبما أنهم يخدمون دون مقابـــل ، ففي إمكاننا الافتراض انهم لا يتوخون إلا خدمة الشعب والخير العام. والناخبون طبعاً يعتبرون جميعاً من المثقفين . وهـذا يعني انهم سيحسنون الاختيار دائماً . ومجلس كهـذا ليس في حاجة الى ضغط خارجي ليعمل . بل الى مساندة شعبية ليعمـل بحرية . والواقع الذي يؤيده الرأي العام ان اكثر أعضاء البرلمـان من الأنانيين المخادعين ، لا يفكرون إلا في مصلحتهم الخاصـــة . والخوف هو الدافع الدائم للعمل. وما يفعلونه اليوم قد يشجبونه غداً . وليس هناك مثل واحد ، عن عمل قام به البرلمان واعتبر نهائياً قطعياً . حتى في الاوقات التي تكون الموضوعات الهامة فيها موضع البحث ، نرى أعضاء البرلمان يتثاءبون ويتمغطون في مقاعدهم ، وأحياناً يثرثرون من أجل قتـل الوقت فحسب . ولذلك فقد أطلق « كارليل» على المجالس النيابية لقب « دكاكين الثرثرة » . كل نائب يصوّت الى جانب حزبه آلياً وبدون تفكير متذرّعاً بضرورة الانتظام . واذا حصل وانفرد نائب في رأيه وعارض الحزب الذي ينتمي اليه ، وصفه رفاقه فوراً بأنه عاقّ وغير منضبط . ولو أن الوقت المهدور ، والمال المبذّر عن طريق البرلمان ، قد أعطيا لبعض الرجالات المخلصين

لكان مستوى انجلترة أرفع بكثير مما هو عليه اليوم .
والبرلمان بالنسبة للشعب كالدوّامة التي لا تتوقف عن ابتلاع
امواله . وهذا الحكم على البرلمان لا أنفرد به وحدي . بل
يشاركني فيه عدد كبير من كبار المفكرين الانجليز أنفسهم. حتى
أن أحد البرلمانيين صرح أخيراً انه ما من مسيحي حقيقي يقبل
ان يكون عضواً في البرلمان . وشبّه آخر البرلمان بالطفل وقال:
إذا كانت سبعماية سنة من عمر البرلمان ليست كافية لتنقله من طور
الطفولة الى طور الرشد ، فأعتقد بأنه سيبقى طفلاً الى الأبد .

القارىء : إن ما تقوله الآن يدعو الى التفكير ، واعتقد
أنك تعلم ، أنني سوف لن استطيع فوراً قبول كل ما تقول
والاقتناع به . فأنت تعرض علي الآن نظريات جديدة ، يلزمني
بعض الوقت لهضمها . فهل تستطيع الآن أن تشرح لي معنى
« بغي » ؟ .

غاندي : من الطبيعي جداً أن لا تتقبل فوراً كل ما أقوله
لك . ولو أردت ان تتطلع الى ما قيل بهذا الموضوع، لاستطعت
ان تكوّن فكرة عنه . فالبرلمان لا رأس له ولا يستطيع رئيس
الوزراء ضبطه . فهو يمنح نفسه كالبغي لكل طالب . ورئيس
الوزراء منشغل دائماً عن البرلمان بأمور السلطة . وهو يحصر همه
وينذر نشاطه لكسب الانتصارات لحزبه . لا يهمه إذا كان
البرلمان يعمل كما يجب . ورؤساء الوزارات يحرصون دائماً على
تسخير البرلمان للعمل لمصلحتهم الحزبية . ومن المفيد جداً التفكير
بكل ذلك .

القارىء : بكلمة موجزة ، إنك تنتقد خاصة ، رجالاً كنا حتى الساعة نعتبرهم من الشرفاء المخلصين والوطنيين الاحرار .

غاندي : نعم ، هذا ما اقصده بالفعل . فأنا لا أكنّ شيئاً ضد رؤساء الوزارات . ولكن ما اعرفه عنهم يدفعني الى عدم القبول بأنهم من المواطنين الشرفاء . وبمعنى آخر في استطاعتنا القول أنهم شرفاء ، اذا كان الشرف في عـــدم قبول الرشوة ، ولكنهم يخضعون لتأثيرات خارجية لا تهدف الى المصالح العامة واستجابة لهـــذه التأثيرات الخاصة يُفسدون العقول والنفوس بألقاب الشرف التي ينثرونها . ولذلك لا أتردد عن القول إنـه ليس عندهم إخلاص حقيقي ولا ضمير حيّ .

القارىء : الآن وقد اطلعت على رأيك في البرلمان ، فهل في استطاعتي معرفة رأيك في الحكومة والشعب ؟

غاندي : بالنسبة للناخب البريطاني ، صحيفتـه هي كتابه المقدّس ، وأحياناً يكوّن لنفسه رأياً خاطئـاً وغير شريف . والحادث نفسه قد تورده الصحف بأشكال مختلفة خدمة لمصلحة الحزب الذي تنطق باسمه . والشخص ذاته قد يوصف بأنه حقير في صحيفة ما ، بينما تجعله صحيفة أخرى مثال الإخلاص.فكيف تكون الحالة النفسية لشعب يستقي معلوماته من مثل هـــذه الصحف .

القارىء : بدون شك ستشرح لي ذلك .

غاندي : سرعان ما يغيّر الناس آراءهم ، ويقـــال إنهم يغيّرونها كل سبع سنوات ،ورأيهم مشابه لرقّاص الساعة الذي

لا يهدأ ابـداً ، والشعب يتبع الخطيب الذي يستطيع ببلاغته وفصاحته ان يستهويه ، او الرجل الذي يُحسن تنظيم الاستقبالات والإجتماعات والمآدب . هذا هو الشعب ، وهـذا هو برلمانه . ولكن ، مع ذلك . فللانجليز ميزة كبرى : إنهم لا يسمحون مطلقاً بضياع بلدهم . واذا تطلّع أحد الناس شزراً الى انجلترة إقتلعوا عينيه .غير أنّ هذا لايعني مطلقاً أنهم يتحلّون بالصفات الأخرى ، وانّ علينا أن نقلّدهم . وإذا كُتِبَ للهند أن تقلّد بريطانية . فأنا متأكد أنها ستسير حتماً الى الهاوية .

القارىء : الى أيّ شيء تعود أسباب حالة انجلترة الحاضرة؟

غاندي : إنّ هذه الحالة ليس مسؤولاً عنها الشعب البريطاني وأمّا المسؤول الحقيقي فهو « الحضارة الحديثة » التي ليس لها من الحضارة سوى الاسم . فإنها في الواقع تدفع أوروبة الى الهلاك يوماً بعد يوم .

٦

الحضـــارة

القارىء : هل أستطيع إذن ان اسألك عن مفهوم الحضارة عندك ؟

غاندي : ليس المهم ما افهم انا في ذلك. فكثيرون من رجال الانجليز رفضوا إطلاق اسم حضارة على ما يحمل عن غير حق هذه التسمية . والكتب التي تبحث هذا الموضوع كثيرة حتى انه تأسست جمعيات هدفها انقاذ البشرية من الويلات التي ألحقتها بها الحضارة الحديثة . واصدر احد كبار المفكرين الانجليز كتاباً يلفت النظر الى هذا الموضوع أعطاه عنواناً : « الحضارة:اسبابها وطرق علاجهـــا » وهو يعتبر فيه الحضـــارة كأي مرض من الأمراض .

القاريء : ولماذا نحن نجهل ذلك ؟

غاندي : لسبب بسيط جداً ، هو أنه من العسير ايجاد أناس يقنعون بحجج تتهمهم ثم يروجونها بين الناس للاطلاع عليها. لقد

اسكرت الحضارة الحديثة معظم الناس وشغلتهم عن الكتابة ضدها . بل بالعكس دفعتهم الى التفتيش عن الوقائع والمستندات التي تدافع عنها . وهم انما يفعلون ذلك آلياً وبدون تفكير ، لاعتقادهم أن ما يفعلونه هو عين الصواب . والرجل الذي يحلم يعتقد نفسه في اليقظة ولا يشعر بخطأ اعتقاده إلا بعد ان يصحو من غفوته . وكذلك الإنسان الذي يعيش في جو الحضارة الحديثة المسموم . هو أشبه بذلك الرجل الحالم . والمؤلفات التي نقرأها عادة هي من انتاج المدافعين عن الحضارة الحديثة . وقد تجد فيها ايضاً اشخاصاً لامعين ورجالاً ذوي قيمة . لقد سحرتنا هذه المؤلفات ووجدنا انفسنا نتردّى الواحد بعد الآخر في الدوامة .

القارىء : كل هذا يبدو ممكناً ، فهل في قدرتك ان تحدثني عما قرأت وعما تعتقد بشأن هذه الحضارة ؟

غاندي : لنر اولاً ماذا تعني كلمة «حضارة». هناك أمر لا ريب فيه ، هو أن الاناس الذين يعتنقون مبادىء هذه الحضارة ويعيشونها ، يتوفر لهم المستوى الحياتي المادي الذين يريدون . وهذا ما يسعون اليه في الحياة . ولنأخذ الآن بعض الأمثلة : ان الشعوب الاوروبية تتوفر لها اليوم تسهيلات سكنية لم تعرفها من قبل . وهي تعتبر ذلك مظهراً من مظاهر الحضارة . وهذا التقدم يؤدي الى تحقيق السعادة المادية . في الماضي كانوا يرتدون جلود الحيوانات ويستخدمون الرماح . واما اليوم فانهم يرتدون السراويل الطويلة وشتى أنواع الالبسة ، ويستخدمون عوضاً عن الرماح ، المسدسات وسائر انواع الأسلحة الحديثة وإذا حاول سكان بلد

ما، تعودوا سابقاً الاكتفاء بالنزر اليسير من الثياب والأحذية، تقليد الأوروبي في لباسه ، قبل أنهم انتقلوا من طور البربرية الى طور الحضارة . وفي الماضي ، كان الإنسان الأوروبي يستخدم يديه في اعماله الزراعية . أما اليوم ، فإن هذه الأعمال قد ترك امرها للآلة ، التي يستطيع الفرد بواسطتها القيام بأعمال يعجز عنها المئات ، ويتيسّر له بفضل ذلك جني الارباح والثروات الطائلة. وهذا ما نعدّه مظهراً من مظاهر الحضارة . في الماضي كانت صناعة القلم مقتصرة على النخبة . أما اليوم فالكل يكتبون وينشرون دون الالتفات الى النوعية ، وهكذا تتسمم الأفكار والعقول . في الماضي كانوا يسافرون في العربات وعلى الخيل او سيراً على الأقدام ، وأما اليوم فإنهم ينتقلون في الفضاء ويجتازون مئات الكيلومترات في اليوم الواحد. كل هذا يعتبر قمة الحضارة. وهم يأملون التوصّل الى وسائل جديدة تمكنهم من الوصول ، في ساعات معدودة ، الى اي نقطة من العالم . وسوف لن يحتاج الإنسان الى يديه ورجليه بعد ذلك . يضغطون على زر فإذا بثيابهم تصبح امامهم . يضغطون على آخر فتأتي اليهم الصحيفة، وعلى ثالث فتهرع السيارة لتقلّهم حيث يريدون ، وعلى رابع فتمتد امامهم مائدة تحوي كل ما لذ وطاب . كل هذا سيتمّ بواسطة الآلة . وفي الماضي عندما كان إثنان يريدان القتال ، كانا يتنازلان ، والأقوى جسدياً يربح . اما اليوم ، فرجل واحد يحمل رشاشاً ، في استطاعته أن يقضي على الالوف . هذه هي الحضارة . في الماضي عندما كان الناس يعملون في الهواء الطلق ،

لا يتقيدون بأي تنظيم للوقت، يعملون ساعة يشاؤون ويرتاحون ساعة يرغبون، أما اليوم فآلاف العمال يُفرَض عليهم ان يسيِّروا الآلات في المصانع ، وأن يعملوا في المناجم ، وحالتهم أسوأ من حالة الحيوانات . إنهم يعرّضون حياتهم لأشد المخاطر من أجل اصحاب الملايين ليتاح لهؤلاء مضاعفة ثرواتهم . في الماضي كانوا يستعبدون الناس بإرهابهم وتخويفهم؛ أمّا اليوم فإنهم يستعبدونهم ببريق الذهب الرنّان والطرق التي تؤدي الى الحصول عليه .
وفي أيامنا هذه انتشرت امراض لم تكن ليتصوّرها الإنسان في الماضي .وهي تتطلب جيشاً من الاطباء للتفتيش عن الدواء اللازم لها ، والعديد من المستشفيات للإستشفاء ، وهذا أيضاً مظهر من مظاهر الحضارة . في الماضي كان ارسال رسالة يتطلب الكثير من التكاليف وساعياً خاصاً لنقله. اما اليوم فأي واحد في قدرته ان يشتم جاره عن طريق الرسائل، ولا يكلفه ذلك إلاّ بنساً واحداً . وقد يكفي هذا المبلغ نفسه لنقل الشكر والمديح . في الماضي كان الناس يتناولون وجبات الطعام مرتين او ثلاثاً في اليوم ، وكانت الوجبات تتألف من الخضر والخبز الذي يصنعونه بأيديهم ؛ أما اليوم فإنهم يريدون أن يأكلوا كل ساعتين ، فلا يبقى لهم متّسع من الوقت للقيام بعمل آخر ، وماذا أستطيع أن أقول اكثر من ذلك ؟ إن كل ما قلته لك تجده في الكثير من المؤلفات التي سمح بها ، والذي يقول لك العكس يكون جاهلاً . وهذه الحضارة لا تهتم بالأخلاق والدين ، ومعتنقوها يصرّحون هادئين بأن تعليم الدين ليس من شأنهم . ويذهب بعضهم الى القول بأن

الدين ما هو إلا اعتقاد باطل ، وهمي وخرافي ، بينما يتستّر البعض الآخر وراء الدين للتحدّث عن الأخلاق . ولكن تجارب السنين العشرين التي مررت بها تجعلني على يقين تام من أن ما يلقّن على أنه أخلاق ، يبطن الكثير من البذاءة والخلاعة . وفي إمكان الطفل أن يلاحظ ذلك ، اذ أنه في كل ما قلته لك لا يوجد أثر للدعوة الى التحلّي بالأخلاق . والحضارة التي تسعى لرفع المستوى الحياتي المادي ، تفشل يائسة في هذا الحقل .

هذه الحضارة ، إنها الالحاد بعينه ، وسيطرتها على الاوروبيين تجعلهم في نظرنا كأنهم انصاف مجانين ، لأنه ليس عندهم ، لا القوة الجسدية ولا الشجاعة . وهم إنما يعاقرون الخمرة دائماً لتبعث في اجسامهم بعض الحرارة والحيوية . وتنهك قواهم في البحث عن السعادة في الوحدة . والنساء اللواتي يجب أن يكنّ ربّات البيوت ، يتسكّعن في الشوارع ، أو يضنين في المصانع . وسعياً وراء دريهمات قليلة ، اكثر من نصف مليون إمرأة انجليزية يعملن في المصانع في حالة يرثى لها . هذه الأوضاع المخيفة هي إحدى أسباب الاتساع المتواصل للحركة المطالبة بنسح المرأة حق الانتخاب .

لقد وصلت هذه الحضارة الى درجة ، لم يعد علينا معها سوى الانتظار بصبر لنراها تقضي على نفسها وتنهار كبيت من الورق المقوى امام النار . وحسب تعاليم النبي محمد ، حضارة كهذه إنما هي حضارة شيطانية ، والتعاليم الهندوسية تسمّيها العصر الأسود المظلم . لا يمكنني أن أعطيك الفكرة الحقيقية عن هذه

الحضارة ولكن يكفيك مراقبة الشعب الانجليزي ، لتتكوّن عندك هذه الفكرة بوضوح ، مما يجعلك تهرب منها بعد ذلـك . والبرلمانات الحديثة هي أصدق رمز وخير تعبير للعبودية . فإذا ما فكرت بذلك جيداً كوّنت لنفسك الرأي نفسه ، وكففت عن لوم الانجليز لأنهم بالفعـل يستحقون العطف وليس اللوم . إنهم شعب بعيد النظر ، لذلك أعتقد أنهـم سيتمكنون من الخروج من هذا الشر . انهم شعب نشيط مقـدام ، وطريقتهم في التفكير ليست منافية للفضيلة ، بـل إنهم طيّبو القلب ، ولذلك أحترمهم . إن الحضارة ليست مرضاً مستحيـل العلاج ، ولكن يجب ألا ننسى بأن الشعب الانجلـيزي ينوء تحت حملها الآن .

٧

لماذا احتُلّت الهند ؟

القارىء : لقد حدثتني طويلاً عن الحضارة واصبح في قدرتي ان افكر جيداً في الموضوع . ولكنني الآن ، لا أستطيع التمييز بين ما يجب أخذه عن الشعوب الأوروبية ، وما يجب اهماله . غير أن سؤالاً خطر فوراً في بالي : اذا كانت الحضارة مرضاً ، وإذا كانت انجلترة قد وقعت تحت وطأته ، فكيف استطاعت على الرغم من المرض ، أن تحتل الهند ، وان تتمكن من البقاء فيها والسيطرة عليها ؟

غاندي : ان الجواب على ذلك ليس أمراً صعباً، وسنستطيع أن ندرس دراسة موضوعية طبيعة الاستقلال . انني اعلم انه عليّ أن أجيب على هذا السؤال ايضاً . ولكنني مع ذلك،سأبدأ بالسؤال الذي طرحته الآن . لم يأخذ الانجليز الهند ، بل نحن الذين اعطيناهم إياها ، ولم يستطع الانجليز البقاء في الهند بقوتهم،

بـــل نحن الذين احتفظنا بهم في بلادنا. والآن لنرى ما اذا كانت هذه التأكيدات تستند على وقائع تؤيدها .

في الأصل ، جاء الانجليز الى الهند من أجل التجارة . ألا تذكر معي شركة «بهادور»؟ ومن الذي اتاح لها ان تغير طبيعتها؟ في ذلك الوقت لم يكن عند الانجليز أية رغبة في اقامـة مملكة . من الذي عاون موظفي هذه الشركة في أعمالهم ؟ ومن الذي بهره بريق ذهبهم ؟ ومن الذي اشترى بضائعهم ؟ ان التاريـخ يثبت اننا نحن الذين فعلوا كل ذلك . ان احلامنا في أن نحصـــل على الثروة السريعة دفعنا الى استقبال ممثلي هذه الشركة والتفـاني في خدمتهم وتسهيل امورهم . ولنفترض انني من المدمنين على شرب الخمر ، وجاء تاجر يبيعني اياه فهل يلام هو أم اللوم عليّ؟ وهـل لوم التاجر يمنعني عن الادمان على الخمر ؟ واذا طردت تاجراً ألا يأتي آخر بعده حاملاً نفس البضاعة ؟ ان الذي يريد حقاً خدمة الهند ، عليه أن يبحث في جذور الأشياء . واذا تناولت من الاطعمة فوق حاجتي واصابتني تخمة ، فهل يخفف مـــن تخمتي وآلام عسر الهضـــم قولي بأن ما اكلته هو السبب ؟. الطبيب الحقيقي هو الذي يبحث عن اسباب المرض الحقيقية. واذا كنت حقـاً تريد شفاء الهند من مرضها فعليـــك ان تستقصي السبب الحقيقي للمرض .

القارىء : أنت محق ، واظن انك لم تعد في حاجة الى البراهين لتتوصل الى اقناعي . وانني متلهف لسماع آرائك الأخرى ، لان موضوع حـديثنا من اهم الموضوعات ، وسأحرص على تتبـــع

افكارك وتوقيفك عن الكلام عندما يخامرني الشك .

غاندي : أخاف على الرغم من حماستك ، من اكتشاف تباين في الآراء بيننا . ومع ذلك سوف لن أناقشك إلا عندما تطلب إليّ التوقف عن الكلام. لقد رأينا كيف استطاع التجار الانجليز الاقامة في الهند بفضل مساعدتنا لهم . وعندما كان امراؤهـا يختلفون على أمر ما كانوا يلجأون لشركة « بهادور » طالبين مساندتها لهم . وقد اشتهرت بالحرب كما اشتهرت بالتجارة ، ولم تكن تتحلى بأي مبدأ أخلاقي . وكان هدفها الوحيد توسيع امكاناتها التجارية وزيادة ارباحها . لقد قبلت المساعدة التي تطوعنا لتقديمها لها وافتتحت مخازن جديدة وأقامت جيشاً لحراستها ، اشتركنا في تأليفه . أليس من العبث إذاً ان ننسب الى الانجليز ما فعلناه نحن ؟ فقد كان الهندوس والمسلمون يلعب بينهم السيف في تلك الحقبة . وكان ذلك فرصة من ذهب استغلتها الشركة لمصلحتها. إننا نحن الذين اتحنا للشركة ان تفرض سيطرتها على الهند . ولذلك من الأصح ان نقول بأننا اعطينا الهند للانجليز ، من ان نقول بأنهم هم الذين اخذوها احتلالاً .

القارىء : هل في استطاعتك الآن ان توضح لي كيف استطاعوا البقاء في الهند .

غاندي : إن نفس الظروف التي اتاحت لهم أخذ الهند هي التي أتاحت لهم البقاء فيها . بعض الانجليز يقولون بأنهم اخذوا الهند بالقوة ، وبقوة السلاح يحتفظون بها . إن هذا القول خاطىء ، فنحن الذين احتفظنا بالانجليز في الهند ، والسلاح

ليس له أي دور في كل ذلك . يقال ان نابليون وصف الانجليز بأنهم شعب متاجر ؛ ان هذا الوصف ينطبق عليهم جيداً. فهم لم يحتفظوا باتحاد الشعوب الانجليزية إلا لاهداف تجارية بحتة . ولم يعتنوا بجيشهم واسطولهم إلا لحماية تجارتهم . وعندما اتضح أن الترانسفال ضعيف الامكانات ، فهم غلادستون أنه ليس من العدل أن يحتفظ به الانجليز ، وعندما عاد وأصبح هذا البلد مركزاً للتجارة ، وقاوم أهله الاحتلال البريطاني ، ادّت هذه المقاومة الى الحرب ، واكتشف شامبرلين ان للانجليز حق السيادة في الترانسفال . ويحكى أن أحدهم سأل الرئيس كروجر فيما اذا كان يوجد ذهب في القمر ، فأجاب : من غير المحتمل أن يكون في القمر ذهباً ، لأنه لو كان فيه لكانت انجلترة غزته وضمته لأمبراطوريتها . والتذكّر بأن المال إله الانجليز يحل الكثير من القضايا . وهكذا اذن ، أبقينا الانجليز في الهند بكامل إرادتنا ولصالحنا ، وكنا نقدر تجارتهم وأساليبهم البارعة التي تمكنهم من الحصول على كل ما يريدون منا . وتوجيه اللوم اليهم اليوم يزيد من تثبيت أقدامهم ، والخلافات الناشبة بين طوائف الهند من شأنها ان تساعدهم على ذلك . واذا كنت تؤيد ما سبق وعرضته ، فإنك ستقرّ معي الرأي الذي يقول بأن الانجليز إنما دخلوا الهند لغايات تجارية ، وبأننا ساعدناهم على تحقيق غاياتهم ، ولم يكن لأسلحتهم وذخيرتهم أية قيمة تذكر . وبهذا الخصوص ، أذكرك بأن العلم البريطاني هو الذي يرفرف في سماء اليابان وليس العلم الياباني . فقد عقد الانجليز معاهدة تجارية مع

اليابان ، وسترى ، اذا سارت الامور في مجراهـــا الطبيعي ، كيف ستشمل اعمال الانجليز التجارية كل الاراضي اليابانية . ان الانجليز يحاولون تحويل العالم اجمع الى سوق كبرى لمنتوجاتهم . وبالطبـــع سوف لن يتمّ لهم ذلك ، ولكن ليس هذا ذنبهم لأنهم سخّروا كل شيء في سبيل الوصول الى هدفهم .

٨

حالة الهند

القارىء : الآن فهمت كيف استطاع الانجليز الاحتفـــاظ بالهند ، وأود أن اعرف رأيك في حالة الهند .

غاندي: انها حالة سيئة. وعندما افكر فيها تغرورق عيناي بالدموع وتجف حنجرتي . .أشك في امكانية الوصول الى التعبير عما أحسّ به . انني مقتنع بأن الذي سحق الهند ، ليس الانجليز وإنما الحضارة الحديثة. وهي تئنّ تحت ثقل هذا الوحش المخيف. ما زال هناك وسائل للتخلص من براثن هــذا الوحش ، ولكن كلمّا طال الوقت كلمّا أصبح ذلك أصعب . إن الدين عزيز جداً عليّ ، واذا كان هناك ما آسف له هو كون الهند قد ابتعدت عن الدين وتردّت في الكفر والالحـــاد . وأنا هنا لا أقصد الديانة الهندوسية أو الاسلامية أو الزوروسترية ، بل التي تجمع بـين هذه كلها . اننا الآن ندير ظهرنا الى الله .

القارىء : وبأية طريقة ؟

غاندي : يتهموننـــا بأننا شعب كسول ، ويقولون عن الأوروبي بأنه حيوي مقدام . وقـد تقبلنا هذه التهمة ونتمنى ، نتيجة لذلك، أن تغير حالتنا. إن الديانات الهندوسية والاسلامية والزوروسترية والمسيحية وكل الديانات الأخرى تطلب إلينـا العزوف عن أمور الدنيـا للإنصراف الى أمور الآخرة ، التي تقرّبنا من الله ، وتوجيه حياتنا في هذا الاتجاه .

القارىء : ان من يسمعك تتحدّث بهذه الصورة يظن أنك من مروجي الشعوذات الدينية . والتحدث بهـذه الطريقة سبق وقاد الكثيرين الى الخطأ .

غاندي : انك تتهم الدين ظلماً . واذا كان من المسلم به ان الأديان محاطة بكثير من المخاتـلات والشعوذات ، فلأنه حيث يكون النور يوجد الى جانبه ظـلام . ولكنني أصرّ على القول بأن المخاتلات الدنيوية أسوأ بكثير من الشعوذات الدينية ، التي لا نجد فيها الخداع الحضاري الذي أحدثك عنه .

القارىء : وكيف الإصرار على أمر كهذا ؟ وما النزاع القائم بين الهندوس والمسلمين الا نزاع باسم الدين . وباسم الدين أيضاً اقتتل المسيحيون . وباسمه قضي على آلاف الأبرياء قتلاً وحرقـاً ورجماً وتعذيباً . ومن المسلم به ان كل هذا يفوق كثيراً المساوىء التي نتجت عن الحضارة .

غاندي : ومع ذلـك فأنا ألاحظ بأن كل هـــذه الآلام اخف وطأة من تلك التي تسببها الحضارة . والجميع يعلمون أنّ الدين براء من القساوة التي تحدثت عنها ، على الرغم من أنها تسترت

باسمه . وهذه الفظائع قد توقفت ، وستستمر كذلك طالما أن هناك جهلة ومؤمنون ، بينما فظائع الحضارة وضحاياها تتوالى كل يوم . إنّ نتائج الحضارة قتالة : فهي تجذب الناس اليها لتقضي عليهم كما تقضي النار على الفراشات . إنها تبعدهم عن الدين مقابل النزر اليسير من مباهج هذه الدنيا . ان الحضارة تخدعنا وهي تمتص دماءنا . وعندما تتكشف لنا خفاياها يتحقق لدينا بأن المخاتلات الدينية ليست شيئاً يذكر امام ما يحيط بالحضارة الحديثة من تمويه وخداع، إنني لا اريد ان ادافع هنا عن المخاتلات الدينية ، لأنني من الداعين الى محاربتها بقوة للقضاء عليها، ولكن ذلك لا يتم عن طريق احتقار الدين ، بل على العكس ، بتقديره والمحافظة عليه خالصاً من كل شائبة .

القارىء : يظهر مما تقول بأنك لا ترى أية فائدة ترجى من السلام البريطاني .

غاندي : إذا كنت أنت ترى في ذلك سلاماً فأنا لا أرى شيئاً من ذلك .

القارىء : لاحظت انك لم تأتِ على ذكر الارهاب الذي نشرته على الهند قبائل التوغ والبنداري والبيل من المنبوذين .

غاندي : لو فكرت جيداً في السؤال لتحققت بأن هذا الارهاب لم يكن مخيفاً . ولو كان كذلك لكانت الطوائف الأخرى قد اضمحلت قبل مجيء الانجليز . وزيادة على ذلك ، فالسلام الحالي ما هو إلا سلام إسمي ، لأنه حوّلنا الى كائنات رخوة وجبانة . وسوف لن ندّعي بأن الانجليز غيروا طبيعة

البنداري والبيل ، ولذلك من الافضل تحمّل الارهـــاب البنداري على قبول حماية منه تجعل منا كائنات مخنثة . وانا افضل الموت بسهم احد المنبوذين من قبيلة البيل على الحصول على حمـــاية حقيرة . وكانت الهند ، قبل ترديها تحت نير هذه الحماية ، بلداً له قيمة كبرى . وفضح « ماكوي » نفسه عندما اعلن عن جهل ، بأن الهنود كانوا جبناء ؛ لأنهم في الواقع لم يكونوا كذلك ابداً . ولو كانوا جبناء وعاشوا في بلد جبلي تجوبه الذئاب والنمور لماتوا من الخوف . هل تسنى لك ان تزور أريافنا ؟ انني أؤكد لك أن فلاحينا ينامون قريري العين دون أي اثر للخوف في مزارع لا يستطيع الانجليز أو أنت أو أنا أن يغمض لنا جفن فيها . القوة هي أن لا تخاف ، وليست انتفـاخ العضلات وضخامة الجثة . وعلاوة على ذلك ، اذكرك انت الذي تطالب باستقلال الهند ، بأن البيل والبنداري والتوغ هم ، على الرغم من كل ما حدث ، إخوان لنا في الوطن . وواجبنا أنت وأنا أن نقنعهم بحججنا ونهديهم الى الطريق الصواب . وطالمـا أننا نخاف من إخواننا هؤلاء ، فسوف لن نصل أبداً الى هدفنا .

٩

الخطوط الحديدية

القارىء : لقد جرّدتني من التعزية التي كان يبعثها في نفسي الاعتقاد بوجود السلام في الهند .

غاندي : انا لم أعطِ رأيي إلا من الوجهة الدينية فقط، ولكن عندما سأحدثك عن فقر الهند ، أعتقد بأنك سوف لن توافقني، لأن ما نعتبره انت وانا ، بحبوحة اليوم في الهند ، لم يعد يظهر لي كذلك .

القارىء : ماذا تعني اذن ؟

غاندي : ان رجال القانون والاطباء والخطوط الحديدية هم الذين أفقروا الهند ، الى درجة انه اذا لم نستيقظ من غفوتنا في الوقت المناسب ، فقد ننهار تماماً .

القارىء : في الواقع ، اخاف من ان لا نتفق بعد الآن لأنك بدأت تهاجم مؤسسات كنا حتى الآن نعتبرها جيدة .

غاندي : يجب ان تتحلى بالصبر ، وإلا كان من الصعب جداً

عليك ان تسبر اغوار مساوىء الحضارة . فأمراض الرئة لاتترك أثراً خارجياً ظاهراً ، بل على العكس ، تُكسب المريض لوناً يدل على انه في احسن حال . والحضارة مرض من هـذا النوع ، ولذلك يجب علينا ان نكون شديدي الحرص .

القارىء : حسناً ، اني اصغي اليك جيداً لتحـدثني عن الخطوط الحديدية .

غاندي : مِن السهل جـداً الملاحظة بأنه لولا الخطوط الحديدية لما استطاع الانجليز السيطرة على الهند كما يفعلون الآن . والخطوط الحديدية ساعدت ايضاً على نشر وباء الطاعون لأنه لولاها لما استطاع الناس ان ينتقلوا بهـذه السرعة حاملين معهم جراثيم المرض الفتاك ، بينما في الماضي كانت الطبيعة تقوم بمهمة الحجر . وساعدت الخطوط الحديدية على انتشار المجاعات ، لأن سهولة التنقل في القطار اتاحت للمزارعين ان يبيعوا فائضهم في أماكن بعيدة ، وبأسعار مرتفعة ، ضاعفت ثرواتهم ، فتعودوا على الكسل ، وهذا ما يجر حتماً الى المجاعة . لقـد ساعدت الخطوط الحديدية على تقوية النواحي السيئة من الطبيعة البشرية فالاشرار اصبح في قدرتهم القيام بمهماتهم الشريرة بسهولة اكثر . ومع الخطوط الحديدية فقدت الاماكن المقدسة في الهند قدسيتها . في الماضي كان الناس يتكبدون الصعوبات الجمة للوصول اليها ، ولذلك لم يكن يتحمـل ذلك سوى المؤمنين الحقيقيين . أما اليوم فيؤمها المخادعون للقيام بأعمالهم الدنيئة .

القارىء : لقد اعطيتني هنا نظرة جزئية ، فالأخيار ايضاً

يستطيعون كالمخادعين زيارة الأماكن المقدّسة. فلماذا لا يستفيدون من هذه التسهيلات التي تقدّمها لهم الخطوط الحديدية ؟

غاندي : إن الصلاح يسير على رجليه ، ولذلك فهـــو ليس بحاجة الى الخطوط الحديدية . واولئك الذين يريدون الخير ليسوا على عجلة ابداً ، لأنهم يعلمون بأنه يلزم الكثير من الوقت لكسب الناس الى جادة الخير والصلاح . بينما ينتقل الشر بسرعة وكأنه طائر ذو اجنحة . لبناء بيت يلزم وقت طويل بينما من اجل هدمه لا نحتاج إلاّ الى القليل . وهكذا فالخطوط الحديدية لا تستطيع ان تقل إلاّ الشر . في إمكاننا ان نتناقش فيما إذا كانت الخطوط الحديدية حقاً تساعد على نشر المجاعة ، ولكننا لا نشك ابداً في كونها تنقل الشر .

القارىء : حتى ولو كان كذلك ، فكل السيئات التي تسبّبها الخطوط الحديدية تغطّيها حسنة هذه الخطوط في كونها تساعد على إحياء الروح القومية .

غاندي : انا لا اقرّك على هذا الرأي ، فالإنجليز علّمونا بأننا لم نكن في السابق شعباً واحداً ، وبأنه يلزمنا مئات السنين قبل ان نتّحد . إن هذا التأكيد ليس له اساس من الصحـــة . فقبل مجيء الإنجليز الى الهند كنّا شعباً واحداً ، نستوحي نفس الأفكار ولنا نفس العادات والتقاليد ، ولو لم نكن بلداً واحداً لما استطاعوا ان يقيموا في بلدنا مملكة واحدة . لم نكن نحن مقسّمين ، بل هم الذين قسّمونا شعوباً وشيعاً فيما بعد .

القارىء : إن هذا الذي تقوله يحتاج الى شرح .

غاندي : انا لا ادعي ان كوننا شعباً واحداً معناه انه ليس بينا فوارق . ولكن الواقع ان الذين كانوا يقودون الهند ، كانوا يتنقلون بين ارجائها على اقدامهم او بعربات تجرّهـــا الثيران . وكانوا يتعلـّمون لغاتها المختلفة ، ولا ينظرون الى احد من ابناء الهند نظرة استعلاء . وماذا يمكن ان يكون مقصد الاجداد من اقامتهم اماكن الحج ستيوباندا (راشاور) في الجنوب ، وجاغنـّه في الشرق ، وهاردوار في الشمال ؟ إنك تعترف بأنـــه لم يكن ينقصهم حسن التفكير . وكانوا يعلمون بأن عبادة الخالق يمكن جيداً ان تتم في البيت . وكانوا يعلـّموننا بأن الذين تغمر قلوبهم الاستقامة عندهم «الغانج» في بيوتهم . وكانوا يدركون بأن الهند بطبيعتها لا يمكن ان تكون إلا بلداً واحداً، ولذلك كانوا يصرون على وجوب كون سكانها شعباً واحداً . وبناء على هذا الاعتبار اقاموا اماكن الحج في اقسام الهنـد المختلفة وأحيوا في قلوب الشعب شعلة الوطنية التي لم يكن قد شعر بها احـــد في ذلك الوقت . ونحن ، الهنود ، نكوّن وحدة تامّة وهـــذا ما لم يكنه انجليزيان أبداً . وليس هنـــاك سواك وأنا وآخرون ، الذين نعتبر انفسنا اكثر تمدناً، وتحضراً، وارفع مستوىً . ونتيجة لذلك نتصوّر بأن بلدنا مؤلف من عدة بلدان . وهذه التصورات، وتلك التميزات لم نكن لنعرفهـا قبل دخول الخطوط الحديدية الى الهند . ولكنك حرّ الآن في ان تقول ان الخطوط الحديدية قد بدأت اليوم بإزالة هذه الفوارق .

القارىء : ولكن هناك سؤال ورد الى ذهني فوراً . لقـد

وصفت لي الهند في حقبة ما قبل الإسلام ، ولكن بيننا الآن في الهنـــد مسلمون وبارسيس ومسيحيون . فكيــف يمكن ان يكونوا جميعاً شعباً واحداً ؟ ان الهندوس والمسلمين أعداء منــذ القِدَم ، وأمثالنا تثبت ذلك . فالمسلمون قبلتهم الغرب للصلاة، بينما الهندوس قبلتهم الشرق . والمسلمون يعتبرون الهندوس من عبدة الأوثان ، اذ يقدسون البقرة واولئك يذبحونها . الهندوس يعتقدون بأن القتــل حرام بينما لا يشاركهم المسلمون في هذا لاعتقاد . في كل مظهر هنــاك اختلاف بيننا وبينهم ، فكيف تريد مني بعد ذلك أن اعتقد أننا شعب واحد ؟

١٠

الهندوس والمسلمون

غاندي : ان سؤالك الأخير رصين جداً . ولكن مع ذلك ، إذا تفحصناه جيداً وصلنا بسهولة الى الجواب ، ويثيره في الأذهان وجود رجال القانون والأطباء والخطوط الحديدية . ولذلـــك سنتكلم على رجال القانون والأطباء ، لانه سبق وتكلمنا على الخطوط الحديدية . ومن الواجب ان أضيف بأن الانسان هكذا وجد بطبيعته ، تقتصر حركاته على ما تقدّمـه له اطرافه من امكانات . فلو لم تساعدنا الخطوط الحديدية على تذليل المسافات لزال القسم الاكبر من هذه البلبلة الحاضرة . ان مصاعبنا تنتج عن طبيعتنا نفسها . فالله كوّن الانسان بطريقة تحد من طموحه في مجال الانتقال ، ولكن الإنسان سرعـان ما فتش عن طريقة تمكنه من تخطي هذه الحدود. لقد منح الله الإنسان عقلاً ليتسنى له معرفة خالقه ، ولكنه ابتعد عن خالقـه لقياس المسافات . لقد بنت العناية الإنسان بشكل يخوله تقديم المساعدة الى جيرانه

فقط ، ولكن كبرياءه يدفعه الى الاعتقـاد بأن عليه خدمة العالم كله . وبمحاولة الانسان فعل المستحيل يصادف طبيعة تختلف عن طبيعته وديانات تتناقض مع ديانته ، مما يجعله تائهـاً تماماً . انك ترى جيداً الآن كيف أن مد الخطوط الحديدية فيه كل الخطر ، لأنها تساعد اكثر على ابعاد المخلوق عن خالقه .

القارىء : ولكن ، لقد عيل صبري ، واريد سماع الجواب على سؤالي : ألم يكن دخول الاسلام الى الهند عاملاً على تجزأة الشعب ؟

غاندي : ان وجود ديانات مختلفة في الهند لا يمنع من ان يؤلف قاطنوها شعباً واحداً . ودخول عناصر غريبة على شعب ما ليس من الضروري ان يؤدي الى القضاء على وحدة هذا الشعب ، لأنه في امكانه ان يذيب هذه العناصر . وهذه القدرة على الإذابة هي احدى الامثلة التي تثبت وحدة الشعب . وهذا ما حصـل دائماً في الهند . وفي الحقيقة ، ان في الهند ديانات بقدر ما فيهـا سكان . ولكن اولئك الذين يشعرون بالروح القومية يمتنعون عن التدخل في معتقدات الآخرين . واذا فعـلوا فمعنى ذلك انهم لا يدركون معنى كلمة « وطن » و « قوم » . والهنـــدوس الذين يعتقدون بأن الهند لهم وحدهم بعيدون جداً عن الحقيقـــة ، غارقون في الاوهام . فالهندوس والمسلمون والبارسيس والمسيحيون الذين اتخذوا الهند موطناً لهم كلهم مواطنون هنود ، وهذا من صـــالحهم جميعاً لأنه من الخير لهم ان يعيشوا متحدين . ولم تكن القومية يوماً ، وفي أي بلد من بلدان العالم ، مرادفـة

للدين ، ولم تكن في الهند أبداً .

القارىء : ولكن ما رأيك في التنافر الغريزي القائم بين الهندوس والمسلمين ؟

غاندي : إن هذا التعبير من وضع عدوّنا المشترك ، وقد كان يصحّ عندما كان الهندوس والمسلمون يقتتلون . أما وقد مضى وقت طويل على ذلك ، وتبدّلت الأحوال بينهم فكيف يمكننا ان نتكلم على هذه العداوة الغريزية ؟ تذكّر هذا جيداً : إن وضع الحدّ للنزاع بينهم ليس له أية علاقة بدخول الانجليز الى بلادنا ، لأنه تمّ قبل ذلك . لقد ازدهرت حياة الهندوس في ظل حكم المسلمين والعكس بالعكس . واعترفت كل طائفة بأن القتال معناه الانتحار ، ولذلك قرّر الجميع أن يعيشوا معاً بسلام . ولم يعكّر صفو هذا السلام إلاّ مجيء الإنجليز .

إن الامثلة التي ذكرت ، كانت تصحّ ايّام كان هناك نزاع ، امّا اليوم ، فاستعمالها فيه كل الضرر . وهل في استطاعتنا ان ننسى بأن لكثير من الهندوس والمسلمين اجداداً مشتركين ، وبأن دماءً واحدة تجري في عروقهم ؟ وهل يصبح الناس اعداء بمجرد ان يغيروا دينهم ؟ وهل إله الهندوس هو غير إله المسلمين ؟ إن الاديان ما هي إلاّ وسائل تقودنا بطرق متعددة الى نقطة واحدة ، الى الله . وماذا يهمنّا ، اذا لم نتبع جميعنا نفس الطريق ووصلنا كلنا الى النقطة الواحدة المشتركة ؟ اين مادة النزاع في ذلك؟

ان بين اتباع «فيشنو» و «شيفا» ما بين الهندوس والمسلمين ، ولكن ما من احد يفكر ، مجرد تفكير ، في القول انهم ليسوا

شعباً واحداً . ويقال ان الديانة « الفيدية » تختلف عن الديانـة « الدجينية » ولكن ما من أحد يقول بأن اتبـاع الديانتين هما شعبان مختلفان. ان القضية هي هذه: لقد خضعنا لنير الاستعباد واعتدنا ان نرى خلافاتنا يحلّها فريق ثالث ، هناك دعاة لتحريم التصوير والتمثيل عند الهندوس كما عند المسلمين . وكلما تقدمنا في معرفة الحق ، كلما اقتنعنا بأنه ليس هناك ما يوجب النزاع بيننا وبين من اختاروا ديانة غير ديانتنا .

القارىء : اود الآن معرفة رأيك في هذه الهالة من التقديس التي تحيط بها البقرة ؟

غاندي : انا شخصياً احترم البقرة واعطف عليها . وبما ان الهند بلد زراعي فهي في حاجة ماسّة الى البقرة التي تحميها من شر الفقر والجوع . انها حيوان مفيد من شتّى الوجوه ، وهذا ما لا يستطيع نكرانه اخواننا المسلمون .

ولكن اذا كنتُ احترم البقرة لهذه الاسباب ، فانني احترم اخواني بني البشر لاسباب اهم . فالإنسان افيد بكثير من البقرة سواء كان مسلماً ام هندوسياً ، ولذلك فليس من الحكمة في شيء قتل مسلم او الخصام معه لذبحه بقرة . لأنني اذا فعلت ذلك فإنما اكون في نفس الوقت عدو المسلم وعـدو البقرة . ولذلك فإني اعتقد بأن خير وسيلة لحماية البقرة هي التقرب من المسلم واقناعه لخير البـلد العام ، بأن يساعدنا في مهمّتنا لحماية البقرة . واذا لم يُصغ اليّ اتخلّى عن قضية البقرة ، لسبب بسيط هو انها فوق مقدرتي ، واعجز عن الدفاع عن هذه القضيه بنجاح .

واذا كان المذهب الهندوسي يمنع القتل فعـــلاً بينما المذهب الاسلامي لا يمنعه ، فقل لي ارجوك : ما هو واجب الهندوسي ؟ هل ورد في مذهبه اللاعنفي بأنه من حقه قتل اخيه في الانسانية؟ ان واجب الهندوسي واضح ومحدد : ليس من حقـه قتل كائن دفاعاً عن كائن آخر ، وكل مايمكنه فعـله هو الدفاع عن قضية هذا الكائن .

ولكن هل يؤمن جميع الهندوس بمبدأ اللاعنف (آهيمسا)؟ لو تفحصنا جيداً اصل السؤال لتحققنا بأنه ما من فرد واحد يتقيد بما يفرضه عليه دينه الهندوسي، لاننا جميعنا نقضي على شيء من هذه الحياة . ونحن انما نتسلح بالدين الهندوسي لنحرر انفسنا من ضرورة القتل في كل حالاته . ولكننا بصورة عامة نلاحظ بأن الكثيرين من الهندوس يأكلون اللحم ، وهم نتيجـــة لذلك ليسوا من اتباع مبدأ اللاعنف ؛ ولذلك فمن العبث القول بأن الهندوس والمسلمين لا يستطيعون العيش معاً لأن هؤلاء يؤمنون بالعنف بينما اولئك يقولون باللاعنف .

وهذه الاشياء أدخلها في ذهننا اساتذة اثانيون سيئو النية . وأكمل الانجليز التعليم ، وكتبوا التاريخ على طريقتهم الخاصة ، مدّعين بأنهم يدرسون عادات الشعوب وتقاليدها . لقد منحنا الله قدرة ذهنية محدودة ؛ فإذا بالانجليز يحاولون اغتصاب القدرة الإلهية ، وعمدوا الى اجراء اختبارات جديدة .ثم عرضوا نتائج أبحاثهم واختباراتهم بأسلوب تقريظي وطلبوا الينا ان نعتقـد بصحة كل ما يقولونه . وكنا جاهلين الى درجة اننا ارتمينـا على

ارجلهم معجبين بما فعلوا .

على الذين يودون تكوين فكرة صائبة عن الاشياء، ان يقرأوا القرآن وفيه سيجدون مئات المقاطع المقبولة عند الهندوس . ومن ناحية ثانية في « الباغا فادجيتا » فصول لا يستطيع المسلم ان ينكرها . وهل أبغض المسلمين لانه يوجد في قرآنهم بعض المقاطع التي لا افهمها او لا احبها ؟ لكي يكون هناك خصام يجب ان يكون هناك متخاصمان على الاقل . فاذا رفضت ان اتخاصم مع المسلم ، فلن يجد هذا مَن يتخاصم معه . وبالمقابلة ، لن اجد انا من اتخاصم معه اذا رفض المسلم ان يخاصمني . وسلاح يضرب في الهواء لا قيمة عملية له . ولو حاول كل واحد أن يفهم دينه على حقيقته ، وينصرف الى تطبيق ذلك مصمّاً اذنيه عن سماع اقوال الانبياء المزيّفين ، لما بقي مكان للخصام .

القارىء : ولكن هل يتيح الإنجليز لنا ذلك فيتسنّى لنا مدّ يدنا الى اخواننا المسلمين ؟

غاندي : ان هذا السؤال قد دفعك لطرحه فقدان الثقة عندك ، وهو يخون صلابة تفكيرنا . فلو اراد شقيقان ان يعيشا بسلام ، هل من الممكن لفريق ثالث أن يحول دون ذلك ؟ إذا أصغيا الى دسائس هذا الفريق فإننا نعتبرهما مخطئين . وهكذا بالنسبة لنا نحن الهندوس والمسلمين . فاللوم يقع علينا وليس على الانجليز ، لأننا نحن مَن اتاح لهم ان يستخدمونا لضرب بعضنا البعض . ان وعاء الفخار ينكسر من اقل صدمة ، سواء وقع على الحجر أو على سواه. والطريقة للابقاء على الوعاء، ليست في

ابعاده عن ملامسة كل شيء ، بل بطبخه على النار طبخاً يجعله على درجة من الصلابة تمكنه من الصمود أمام الصدمات. ولذلك اعتقد ان علينا أن نقوّي قلوبنا ونزيدها صلابة ومناعة ، وبعدئذ نستطيع ان نجابه بجرأة كل خطر . وهذا سهل على الهندوس الكثيري العدد ، الذين يطالبون بأن يكونوا اكثر ثقافة ، ويستطيعون ، نتيجة لذلك ، وبسهولة ، أن يحموا انفسهم من كل محاولة يُقصد منها الإيقاع بينهم وبين اخوانهم المسلمين .

إن الحذر المتبادل يسود بين الطائفتين . وقد طالب المسلمون اللورد «مورلاي» بأن يمنحهم بعض الامتيازات ، فيما يعارض الهندوس ذلك . انهم لو امتنعوا عن هذه المعارضة ، لسجّل البريطانيون هذه البادرة لهم ، ولاستردّ المسلمون ثقتهم بالهندوس رويداً رويداً . وتولد ، نتيجة لذلك ، الشعور الاخوي بين الطائفتين . يجب ان نخجل من رفع خصوماتنا الى الانجليز . ومن الجليّ الواضح بأن الهندوس لا يخسرون شيئاً اذا ما امتنعوا عن معارضة اعطاء المسلمين بعض الامتيازات . والذي يوحي الثقة للغير لا يخسر هو شيئاً .

وانا لا ادّعي القول ان الهندوس والمسلمين ، من الممكن ان يعيشوا بدون خصام أبداً ، لأن خصام اخوين يعيشان معاً أمر اعتيادي ، وهو من طبيعة البشر . فالانسان عندما تعتريه سورة الغضب ، يرتكب الكثير من الحماقات . ولكن اذا حصل خصام ، فليس معنى ذلك أن نعقد مجلساً او أن نرفع الامر الى

الانجليز ، او ان نلجأ الى المحاكم . اثنان يتخاصمان ، وأحدهما او الاثنان معاً قد تصيبهما جراح ، فكيف يستطيع فريق ثالث أن يحكم بينهما بالعدل ؟ انه يجب علىَ مَن يخاصم ان يعلم بأنه قــد يصاب بجروح .

١١

رجال القانون

القارىء : لقد قلت لي أنه اذا وقع خلاف بين اثنين ، يجب ألا يرفعا امرهما الى الحاكم . وهذا قول مدهش حقاً .

غاندي : لا يهمني ان تجد هذا مدهشاً ام لا ، فإن الأمر هكذا . إن سؤالك يفسح لي المجال للدخول في بحث قضايا الاطباء ورجال القانون . وأنا على يقين من ان رجال القانون قد دفعوا بالهند الى درك العبودية ، وزادوا شقة الخلاف بين الهندوس والمسلمين ، لتثبيت دعائم السلطة البريطانية .

القارىء: من السهل إطلاق التهم ، ولكن من العسير إثبات ذلك . وبدون رجال القانون من كان يكشف لنا طريق الاستقلال ؟ من كان يحمي الضعيف ؟ ومن كان يدافع عن العدالة ؟ وهاك مثلاً « ما نوهومان غوز » قد دافع عن اكثر من فقير اتهم ظلماً . والمؤتمر الذي اطريته كثيراً ألا يدين بوجوده ونشاطه وأعماله الى رجال القانون . ومن الجور تحقير مهنة

محترمة ، واساءة استخدام حرية النشر والقول لازدراء رجال القانون .

غاندي : لقد كنت في الماضي ، اشاركك اعتقادك هذا . ولن أسعى اليوم الى اقناعك بأنهم لم يؤدوا عملاً ذا قيمة . فأنا أحترم ذكرى « غوز » وأقر بأنه فعلاً ساعـد الفقراء ، وبأن المؤتمر يدين في الكثير من الامور الى رجال القانون . ولكن هؤلاء أناس على الرغم من كل شيء . وفي كل إنسان نواحٍ طيبة خيرة . وكل مثل نقدمه صورة عن اعمال جيدة قـام بها رجل قانون ما ، انما يعود الى الناحية الخيرة فيه كإنسان ، وليس كرجل قانون . ان الذي احاول إظهاره لك هو هذا : ان كل مهنة هي مفسدة للأخلاق لانهـا تعرض ممتهنيها الى غوايات لا يصمد في وجهها الا القلائل .

الهندوس والمسلمون تخاصموا . ان كل انسان طيب في امكانه أن يقول لهم : تناسوا ما حصل ، فكل منكم يقع عليه قسم من المسؤولية ، ثم ينصحهم بأن يضعوا حداً لنزاعهم . ولكن عوضاً عن ان تسير الامور في هذا الاتجاه ، توجهوا الى رجال القانون . وواجب هؤلاء هو اعطاء الحق لموكليهم والتفتيش عن المستندات التي قد لا تمر في مخيلة الموكلين انفسهم . واذا لم يفعل المحامون هكذا قيل انهم يسيئون الى المهنة . ولذلك تراهم دائماً يعملون على زيادة شقة الخلاف عوضاً عن تهدئة المتخاصمين والتقريب بينهم . وعلاوة على ذلك لا يفعل الذين يمتهنون هذه المهنة ذلك لخدمـة اخوانهم في الانسانية ، اذا ما وقعوا في ضيق ، بل سعياً وراء الثروة . وبنـاء على ذلـك فمن مصلحتهم أن تزداد المشاكل

والخلافات بين الناس ، وقد يشجعون ذلك ، ويعلنون عن ارتياحهم كلما كثرت الخلافات وتعددت . واحياناً يخترعون موضوعات خلاف لا اساس لها ، وذلك رغبة في الربح على حساب موكليهم المساكين . وهم بذلك يشبهون العلق الذي لا يعيش الا على ما يمتصه من دماء الآخرين. انهم فئة كسولة لا تحب العمل ، ولم يختاروا هذه المهنة إلا لأنها تتيح لهم الوقت الكافي للانصراف الى ملذاتهم . ان ما أقوله لك هنا هو عين الحقيقة ، وكل رأي يخالف ما هو الا حجة واهية. ورجال القانون انفسهم هم من ادّعى بأن مهنتهم شريفة ومعتبرة. وهم يعدّون القوانين كما يعدون المديح لأنفسهم. وهم أيضاً الذين يقررون كم يستحقون بدل أتعاب ، ويعرضون الأمر بطريقة تجعل الناس البسطاء يعتقدون بأنهم مرسلون من السماء .

لماذا يصرون على ان تكون أجورهم أرفع من اجور العمال ؟ ولماذا تكون الحاجة اليهم أكبر ؟ وبماذا يمتازون عن العمال فيما يقدمون لبلادهم ؟ هل يعطيهم عمل الخير الحقّ في أن يربحو أكثر ؟ ومهما يكن نوع الخدمات التي يقدمونها لبلادهم فلا يمكننا أن نعتبر عملهم وخدماتهم من باب الخير ، إذا كانوا يفعلونها حبّاً بالمال .

ان كل الذين اطلعوا على النزاع الهندوسي الاسلامي يعلمون جيداً بأن رجال القانون ، في مداخلاتهم ، عملوا كثيراً لتوسيع الخلاف، وخرّبت بيوت كثيرة على ايديهم نتيجة لذلك. وبسبب رجال القانون ودسائسهم تحول الأخ عدواً لأخيه ، وبعض

الامارات التي تسنى لهم السيطرة عليها ، غرقت في الديون وتعرّت من كل شيء . وفي امكاني أن أورد لك الكثير من الأمثلة على ذلك .

ولكن جريمتهم الكبرى التي ارتكبوها في حق الهند هي مساعدتهم للانجليز في تثبيت أقدامهم في بلادنا . وهل تعتقد انه كان في قدرة الانجليز البقاء في الهند لو لم يكن لديهم محاكم تساعدهم ؟ ومن الخطأ الجسيم الاعتقاد بأن هذه المحاكم قامت للدفاع عن حقوق الشعب . ان الذين يريدون تأمين سيطرتهم إنما يفعلون ذلك عن طريق المحاكم . واذا توصل المتخاصمون لحل خصوماتهم فيما بينهم ، كيف يتسنى لفريق ثالث ان يفرض نوعاً من السيطرة عليهم ؟ في الحقيقة ، ان الانسان يظهر اقل انسانية عندما يخاصم أخاه ، أو عندما يطلب الى جاره اتخاذ قرار لأجله . ويصبح جباناً حقيراً عندما يلجأ الى المحاكم لتحل له خلافاته مع اخيه أو جاره ، واللجوء الى النزاع لحل مشكلة ما قائمة هو علامة البربرية . ولا يقل بربرية عن ذاك ، هذا الذي يطلب الى فريق ثالث التدخل في شؤونه وقريبه . المتخاصمون وحدهم هم الذين يعرفون مَن هو المذنب منهم ومَن هو المحقّ . ونحن على بساطتنا وجهلنا نعتقد بأن الغريب قد يعدل فيما بيننا ، في الوقت الذي يكون فيه يبتز أموالنا .

قبل كل شيء يجب ألا ننسى بأنه لولا رجال القانون لما كان هناك محاكم ، وبأنه لولا هذه المحاكم ، لما استطاع الانجليز فرض قوانينهم . ولنفترض بأنه ليس هناك سوى قضاة انجليز ومحامون

انجليز وشرطة انجليز ، فانهم لن يستطيعوا فرض قانونهم إلا على الانجليز . ولا يستطيعون شيئاً بالنسبة لغير الانجليز لو لم يكن هناك قضاة ومحامون من الهنود . وفي امكانك ان تتصور بسهولة كيف احسن الانجليز وفادة المحامين الهنود الأول وتملقوهم .وعند ذلك لن تشعر تجاه هذه المهنة إلا بالقرف الذي أكنّه لهـا انا . ولو افاق المحامون من نشوة التملق ، ورأوا الى اي درجة قد انحطت مهنتهم حتى اصبحت كالدعارة ، لتركوها . وعند ذلك سوف لن يستطيع النفوذ البريطاني ان يبقى يوماً واحداً ، بل ينهار بمجرد نزع الدعائم التي قام عليها . وبفضل هؤلاء المحامين اتهمنا بأننا لا نستطيع الحياة دون مشاكل ونزاع ، مثل السمك الذي لا يستطيع العيش خارج الماء . ان ما قلته عن المحامين ينطبق على القضاة أيضا لأن هؤلاء وأولئك شركاء يساند احدهما الآخر.

١٢

الأطبـــاء

القارىء : فهمت الآن قضية رجـــال القانون : ان كل مايفعلونه من الخير ما هو الا عرضي ، واستطيع ان اتصور كل ما يمكن ان ينتج عن مهنة المحاماة من ضرر . ولكنك الى جانب المحامين تهاجم الاطباء فهل لي ان أسألك لماذا ؟

غاندي : لقد عرضت لك وجهة نظر تبنيتها وليس فيهـــا شيء من الغرابة . فالكتّاب الغربيون استعملوا تعابير ونعوت اشد قساوة في احاديثهم عن رجال القانون والاطباء . وتوصـل احدهم الى تشريح الجهاز الحديث كله مشبهاً إياه بشجرة تشكل مختلف المهن ومن بينها الحقوق والطب اغصانها الطفيلية . والدين الحقيقي هو محورها ، ولكن الرداءة هـــي اساس هذه الشجرة الغريبة . وهكذا فأنت ترى بأن الذي اقوله لك ، لا أنفرد به وحدي، بل انه النتيجة التي توصل اليها الكثيرون بعدالتجارب الطويلة . لقد مضى وقت كنت اقدر فيه كثيراً مهنـــة الطب

وتمنيت لو أكون طبيباً يتسنى لي خدمة بلدي . ولكنني الآن لا أرى الامور على هذا الشكل،وبتُ اعلم السبب الذي من اجله قل اعتبار الطبيب بيننا .

واما الانجليز فقد استفادوا كثيراً من هذه المهنة لأنها اتاحت لهم ان يضعوا ايديهم على بلادنا . وكلنا يعلم بأن بعض الاطباء الانجليز استخدموا مهنتهم للحصول على امتيازات سياسية من الملوك الآسيويين .

لقد خدعنا الاطباء كثيراً ، وأعتقد بأن المشعوذين يبقون أعظم قدراً من امهر النطاسيين . ولنتفحص المسألة الآن : ان وظيفة الطبيب هي الاعتناء بالاجسام وبصورة أدق إنقاذها من الامراض التي قد تصيبها . ولكن هذه الامراض كيف تتولد ؟ انها نتيجة جهلنا دون شك ، او اهمالنا . اذا أكلت كثيراً اصابني عسر هضم ، فأذهب الى الطبيب ويعطيني دواء فأشفى. ثم اعيد الكرة ، واعود الى تناول الحبوب واستمر على هذا المنوال . ولكن لو لم اذهب الى الطبيب في المرة الاولى ، ولو لم أتناول الحبوب الشافية ، لكنت شعرت بمرارة الالم الذي سببته لي شراهتي وتعلمت بألا اعود الى ذلك . ان الطبيب بتدخله في امري اتاح لي ان استرد راحتي وسلامتي . ان جسمي يشعر بتحسن ولكن إرادتي وهنت . ولذلك كلما أدمنا على تناول الادوية كلما ضعفت ارادتنا .

ولنعتبر انني اكتسبت عادة سيئة وبسببها مرضت : يأتي الطبيب ويشفيني من مرضي . ولكن الشيء الذي اكون قد

ربحته من كل ذلك هو استرسالي في عادتي السيئة . فلو لم يتدخل الطبيب ، لكانت الطبيعة فعلت فعلها ، وتوصلت الى السيطرة على نفسي ، وتحررت من عادتي السيئة ، واصبحت اكثر سعادة.

وأما المستشفيات فهي اماكن لنشر الخطيئة . والناس يهملون شيئاً فشيئاً الاعتناء بأجسامهم وتنتشر الرداءة والرذيلة. والاطباء الاوروبيون هم احط الاطباء ، لأنهم من اجل الاعتناء بجسم بشري أهمله صاحبه ، يعمدون سنوياً الى قتل آلاف الحيوانات ، لاجراء التجارب عليها . وليس هناك ديانة واحدة تسمح بمثل هذه الاعمال وتباركها . وكل الناس يعترفون بأنه ليس من الضروري القضاء على مئات الارواح في سبيل الاعتناء بالاجسام المريضة .

ان هؤلاء الاطباء يجرحون شعورنا الديني . واكثر الادوية التي يستخدمونها تحوي بعض الشحم الحيواني او المركّبات الكحولية ، وكلها من المحرمات عند الهندوس كما عند المسلمين . اننا بدون شك نستطيع التصريح بأننا متمدنون ؛ وبأن المحرمات الدينية هي من قبيل الوهم والخرافات ، وذلك للاسترسال وراء رغباتنا . وليس هناك من شك في ان الاطباء يساعدوننا على هذا الاسترسال . وبسببهم فقدنا كل سيطرة على نفسنا وازددنا ميوعة ورخاوة . وفي هذه الحالة لم نعد صالحين لخدمة وطننا . والاستمرار في دراسة الطب الاوروبي معناه الاسترسال في العبودية .

ومن الجدير بالبحث معرفة الدوافع التي جعلتنا نمتهن مهنة

الطب . انها بدون أدنى ريب ، ليست خدمة الانسانية . لأننا نمتهن مهنة الطب لنحصل على الجـاه والثروة . وقد حاولت ان أريك كيف ان هذه المهنة لاتخدم الانسانية بقدر ما تسيءاليها. ان الاطباء يعرضون معارفهم ويتقاضون على ذلك مبالغ خيالية. ان اعمالهم التي لا تستحق في الواقـــع الا بعض الدريهمات ، تـكلفنا المئات . والناس يقبلون هذا الخداع على امل التخلص من أوجاعهم . ان المشعوذين ، ونحن نعلم ذلـــك ، هم اكثر قيمة وأفضل من هؤلاء الذين يدّعون بأنهم منقذو الانسانية .

١٣

ما هي الحضارة الحقيقية ؟

القاريء : لقد شهّرت برجال القانون والاطباء والخطوط الحديدية ، فهل معنى ذلك انك ، بصورة عامة ، لاتؤيد كل مـا هو ميكانيكي ؟ واذا كان الامر كذلك،فما هي الحضارة الحقيقية؟

غاندي : ليس من العسير الجواب على سؤالك هذا . واعتقد أنه لا يوجد في العالم أية حضارة تصل الى المقام الذي وصلت اليه حضارتنا الهندية ، لأن البذور التي زرعها اجدادنا ليس لها من مثيل . ان عظمة روما قد زالت ، وكذلك عظمة أثينا ، وقوة الفراعنة تحطمت، واليابان ذاتها «استغربت». وبالنسبة للصين ، لا نستطيع قول شيء حتى الآن.ولكن الهند ، ورغم كل ما مر عليها من قرون ، بقيت صالحة الاساس . والاوربيون يدرسون آثار اليونان والرومان الذين فقدت بلادهم أمجادها القديمة . وهم يأملون من دراستهم تلك ، تجنب الاخطـاء التي سببت سقوط اليونان والرومان . هذه هي حالتهم التعيسة . والهند في وسط

كل ذلك ، ما زالت ثابتة كما كانت ، وهذا ما يفسر عظمتهـا . والهند انما هي مسؤولة وحدها عن جهل ابنائها وبقائهم محدودين على عتبة الحضارة . وهذا بالحقيقة مزيتنا، اننا لا نريد أن نتقبّل أيّ تغيير لما أكدت لنا تجاربنا بأنه عين الصواب . كثيرون هم اولئك الذين يحـاولون أن يفرضوا على الهنود طريقتهم في النظر الى الامور ، ولكن الهند ما زالت ثابتة في موقفها . وهذا مـا يزيد من روعتها ويجعلها مرساة السلام لآمالنا .

ان الحضارة هي الطريقة في الحياة التي تجعل الإنسان يدرك اين يكمن واجبه . والتقيد بالمبادىء الاخلاقية معنـاه السيطرة على النفس وكبح جماح الرغبات ، وهكذا نتعـلم كيف نعرف انفسنا . وفي « الغوجراتي » تعني كلمـة حضارة : « السيدة الحسنة » .

وإذا فهمنا الحضارة هكذا ، فلن نحتاج الى تعلم شيء جديد مهما كان نوعه ، كما يقول كثير من المفكرين . نحن نعلم بأن العقل جشع : كلما تعلم ، كلما طلب الاستزادة . وهكذا يبقى جائعاً دائماً . والشيء ذاته بالنسبة لاهوائنا: كلما استجبنا الى مطالبها ، كلما طلبت الاستزادة . ولذلك وضع اجدادنا حدوداً لما يمكن عمله ويُسمح به . لقد فهموا بأن السعادة منوطة بحالتنا النفسية قبل كل شيء. ليس الثراء او الفقر هو ما يجعلنا سعداء او تعساء بل اننا كثيراً ما نلاحظ العكس ونجد ان الملايين قد تكون من اهم أسباب التعاسة. ويظهر ان اجدادنا قد لاحظوا ذلك فطلبوا الينا العزوف عن الملذات والترف. وما زلنا حتى اليوم نستخدم

عربات مشابهة لما كان يستخدمه أجدادنا منذ آلاف السنين ، ونعيش في اكواخ كتلك التي كانوا يبنونها ، واحتفظنا بطريقة التعليم التي خلفوها لنا . ونحن لا نعرف المزاحمة التي تفسد كل شيء ، بل كل منا يؤدي عمله بحرية ويتناول اجراً معقولاً لذلك. وليس هذا لأننا نجهل اختراع الآلات ، بل لأن اجدادنا كانوا يعلمون بأننا اذا سرنا في تلك الطريق، نكون قد سرنا في طريق العبودية، ونخسر قيمتنا الاخلاقية. لذلك، وبعد تفكير طويل، قرروا بأنه يجب ان لا نفعل الا ما تتيحه لنا أطرافنا ، وايقنوا ان سعادتنا الحقيقية وسلامتنا منوطان بحسن استخدامنا لأيدينا وارجلنا . ثم فكروا اكثر فلاحظوا ان المدن ما هي الا عقبات واشراك لايستطيع ساكنها ان يحصل على شيء اسمه السعادة . وفي المدينة تأخذ الرذيلة جذورها بأشكال عصابات اللصوص والنشالين والعاهرات ، وفيها يسرق الغني الفقير ويزيده فقراً؛ ولذلك ، فقد اكتفوا بالسكن في القرى . ولاحظوا ان الملوك وسيوفهم لا يوازون الأسلحة الاخلاقية ، واعتبروا الملوك أقل شأناً وقدراً من اي فقير . وشعب يرتكز على انظمة ودساتير كهذه قادر ان يفيد الآخرين كثيراً ،ويقدم لهم الكثير . وهو غير مستعدٍ لأن يتلقى دروساً من الخارج . وهذا الشعب كانت له محاكمه الخاصة ورجال قانونه وأطباؤه . ولكن ذلك كان مقبولاً ضمن نطاق محدود ، والكل كان يعلم أن هذه المهن لا تمتاز بشيء عن غيرها . وعلاوة على ذلك كان ممتهنو هذه المهن لا يسرقون زبائنهم .لقد كانوا في خدمة الشعب

وليسوا أسيـاداً له . والعدالة كانت تسري على الجميع بإنصاف وعلى العموم ، كان الناس يتجنبون الوصول الى المحـاكم . ولم يكن هناك مرغبون يُغرون الناس باللجوء اليها . وذلك لأن مثل هؤلاء ، لا وجود لهم إلا في المدن . واكثر الناس في القرية ينصرفون بحرية الى اعمالهم الزراعيـة ، وهذه هي عـلامة الاستقلال الحقيقي .

وهناك حيث لم تدخل الحضارة الحديثة اللعينة ، بقيت الهند كما كانت دائماً . وسكان هذه المناطق يضحكون منك طويلاً ، اذا حاولت ان تعرض عليهم نظريتك الحديثة . ان الانجـليز لم يستطيعوا تنفيذ القانون عندهم . ونحن كذلـك لن نتوصل الى ذلك . واريد ان اسدي نصيحة لك ولكل من يحب وطنه مثلك بأن تذهبوا لقضاء ستة اشهر فقط في داخل الهند ، في تلـك المناطق التي لم يفسدها مرور الخطوط الحديدية بعد . وبذلـك تصبحون مواطنين حقيقيين ، ومن حقكم عندئـذ ، ان تتكلموا على استقلال الهند .

انك تدرك جيداً الآن ماذا اقصد بقولي : الحضارة الحقيقية . وكل اولئك الذين يحاولون تغيير حالة الهند كما وصفتها ، هم اعداء يريدون إلحاق الضرر بالوطن .

القارىء : لو كانت الهند كما وصفت ، لما كان هناك مشكلة . ولـكن الهند هي ايضاً مئات البنات الصغيرات الأرامـل ، والزيجات بين اطفال في الثانية من عمرهم . الهند هي ايضاً امهات وربات بيوت في الثانية عشرة ، وهي ايضاً تعدّد الازواج الذين

يرتبطون بامرأة واحدة ، و«النيوغا» والدعارة التي تزاولها الفتيات باسم الدين . ثم هي تضحيات الخراف والماعز باسم الدين ايضاً . هل تجد في كل ذلك إمارات الحضارة التي وصفتها لي الآن ؟!.

غاندي : لقد اسأت الفهم والتبس عليك الامر . النواقص التي تكلمت عليها هي نواقص. ولكني لم اخلط بين هذه النواقص وبين حضارتنا العريقة ، وهي تعيش على الرغم من الحضارة . وسوف لن نتوقف عن محاربتها ومحاولة القضاء عليها . واننا نستطيع استخدام الحالة النفسية التي تولدت عندنا ، في محاولتنا القضاء على هذه النواقص . بينما الذي عرضته لك عن مساوىء الحضارة الحديثة ، لا يستطيع انكاره أنصار هذه الحضارة انفسهم . وابناء الحضارة الهندية أعطوها الوصف ذاته الذي اعطيتها انا اياه . وفي ظل اية حضارة ، وفي أيّ جزء من العالم لم يصل الانسان الى الكمال . وهدف الحضارة الهندية هو رفع المستوى الاخلاقي عند الانسان ، بينما تعمل الحضارة الغربية على الانحدار بهذا المستوى . وهذه الاخيرة هي ملحدة ، بينما ترتكز حضارتنا على مبدأ الايمان بالله . ان الذين يحبون الهند ويرون الاشياء على هذه الصورة ، لا يمكنهم الا ان يهرعوا الى الحضارة الهندية العريقة ، كما يهرع الطفل الى احضان أمه .

١٤

كيف تستعيد الهند حريتها ؟

القارىء : إني أقدّر كلامك عن الحضارة ، ولكن يلزمني بعض الوقت للتفكير في ذلك ، لأنني لا استطيع هضم ذلك دفعة واحدة . ولكن إذا رأينا الامور على هذه الصورة كيف يمكن للهند ان تستعيد حريتها ؟

غاندي : انا لا انتظر منك ان تتقبّل وجهة نظري دفعة واحدة . وواجبي أن اعرض وجهة نظري هذه لكل قارىء مثلك . واعتمد على الوقت ليفعل فعله . لقد سبق وتكلمنا ، ولكن بطريقة غير مباشرة ، على إمكانية تحرير الهند . وسنتكلم على ذلك الآن بصورةمباشرة . هناك حقيقة مقبولة عند الجميع ، تقول بأن القضاء على سبب المرض يقود الى القضاء على المرض نفسه . بالنسبة للهند ، فالقضاء على سبب العبودية يتيح للهند أن تستعيد حريتها .

القارىء : لو كان الامر كما تقول ، وكانت الحضارة الهندية

أرقى الحضارات ، فكيف يمكنك تفسير رضوخها لنير العبودية ؟

غاندي: من المؤكد ان هذه الحضارة هي الأحسن. ولكن ، كما تعلم ، تمرّ الحضارات بتجارب . وتلك التي تجتاز هذه التجارب بنجاح تكون هي الأفضل . إن عجز ابناء الهند ووهنهم هو الذي سبب انهيار الحضارة الهندية وتقهقرها ؛ وهي ستبرهن عن قوتها إذا استطاعت أن تخرج سليمة من هذه الصدمة العنيفة . وعلاوة على ذلك ، فالهند لم تخضع كلها لهذه التجربة ، ولم تلحق الصدمة إلا قسماً منها ، وهو القسم الذي تأثر بالحضارة الغربية ، فاصبح عبداً لممثليها . وكما أننا نقيس العالم بالمقياس العادي الذي نعرفه ، كذلك نعتبر أن كل العالم يخضع لنير العبودية ، لإننا نخضع نحن لذلك .

وبسبب حالتنا التعيسة الحاضرة نظن بأن الهند كلها كذلك. ولكن الواقع هو غير هذا . ومع ذلك ، فنحن ننسب العبودية للهند كلها ، مع العلم بأننا وحدنا المستعبدون . فاذا تحررنا من عبوديتنا تحرّرت الهند كلها . ومتى فكّرنا على هذه الصورة أصبح في إمكاننا تعريف الاستقلال . فالاستقلال هو تمرّس المرء على إدارة شؤونه بنفسه، ونتيجة لذلك، فالاستقلال منوط بنا . وهذا ليس من عالم الخيال. ولكن، لا يكفي أن نكون سلبيين، لأن الاستقلال الذي أريد ، لو أتيح لأي واحد الحصول عليه ، لراح يبشّر به طيلة حياته . إنها تجربة يجب على كل إنسان أن يمرّ بها . فرجل غريق لا يستطيع إنقاذ غريق آخر . واذا كنا

نحن مستعبدين ، فمن العبث الادعاء ، ان في قدرتنـــا تحرير الشعوب الاخرى .

لقد فهمت الآن ، كما أعتقد ، لماذا يجب أن لا يكون هدفنا الأول إخراج البريطانيين من الهند. فلو استطاع الانجليز المقيمون في الهند أن يعتنقوا مبادىء الحضـارة الهندية لكان في امكاننا ، أن نعتاد على وجودهم بيننا . ولكن ، اذا كانوا يريدون الإقامة في الهند مع الاحتفاظ بمبادىء حضارتهم الغربية ، فلا مكان لهم بيننا ، وهذا يتعلق بنا وحدنا .

القارىء : إنه لضرب من المستحيل أن يصبـــح الانجليزي هندياً !

غاندي : إن تأكيدك هذا معناه أنه لا يوجد عند الانجليز أية نزعة إنسانية . والسؤال ليس لمعرفـــة ما اذا كانوا قادرين أم لا . فلو حرصنا على تنظيم بيتنا، لبقي فيه فقط منهم قادرون على الحياة فيه والخضوع الى نظامه . واما الآخرون فيذهبون من تلقاء أنفسهم دون أن يطلب أحد اليهم ذلك . وكل واحد منّا علمته التجارب بأن الأمور تتم على هذا الشكل دائماً .

القارىء : ولكن هذا لم يحدث في التاريخ حتى الآن !

غاندي : إن الاعتقـــاد بأن الذي لم يحصل في التاريخ حتى اليوم معناه أنه لن يحصل ابداً هو وصم المقدرة الانسانية بالخمول. ومهما يكن من أمر فمن الأفضل إتباع ما يوحيه الينا عقلنـــا . فالشعوب لا تعيش كلهـا في الظروف ذاتها . وظرف الهند فريد في نوعه ، وقوّتها لا يحدّها حدّ . ولذلك فنحن لسنا في حاجة

الى الاستناد الى تاريخ الآخرين . وقـد حرصت على لفت نظرك الى انه حيث أخفقت الحضارات الاخرى ، استطاعت حضارة الهند أن تعيش .

القارىء : لقدتوقفت عن الاصغاء إليك، ومن غير المشكوك فيه أنه علينا أن نطرد الانجليز بقوة السلاح . وطالما هم في بلادنا فسوف لن ننعم بساعة راحة وهدوء . لقد توصل أحد شعرائنا الى القول بأن العبد لايحق له حتى ان يحلم بالسعادة مجرّد حلم. ان وجود الانجليز في بلادنا يزيدنا ضعفاً يوماً بعـد يوم . فعظمتنا قد زالت وهيئة شعبنا اصبحت مخيفة . وهم يحتلون بلادنا كالنباتات الطفيلية ، فيجب التخلص منهم بأي ثمن .

غاندي : إنك تجزم أمرك ، وتنسى كل ما سبق وقلناه حتى الآن . لقد أتحنا للانجليز الدخول الى بلادنا واحتفظنا بهم فيها ، ولماذا لا تتذكر أننا باتباعنا مبـادىء حضارتهم ساعدناهم على امكانية البقاءفي الهند؟ عليك ان تصب جام غضبك علىحضارتهم كما صببته عليهم . واذا سلمنا بوجوب إخراج الانجليز من الهند بقوة السلاح ، فكيف يجب ان يتم ذلك حسب اعتقادك ؟

القارىء : بنفس الطريقة التي اتبعتها ايطاليا . فمـا فعله « مازيني » و « غاريبالدي » في استطاعتنا أن نفعله نحن أيضاً . انك لا تستطيع أن تنكر بأنهما كانا من الرجال الافذاذ .

١٥

ايطاليا والهند

غاندي : لقد أحسنت باختيارك مثل ايطاليا . فمازيني كان عظيماً وطيباً . وغاريبالدي كان محارباً عنيـــداً . وكلاهما يستحقان الإعجاب ، لأن في حياة كل منهما بعض العبر . ولكن الظروف التي كانت فيها إيطاليا مازيني وغاريبالدي تختلف عن ظروف الهند اليوم . وقبل كل شيء ، إن الفرق بين مازيني وغاريبالدي شاسع جداً . واهداف مازيني لم يكتب لهـــا ان تتحقق في ايطاليا حتى اليوم . ففي كتاباته اظهر مازيني بأن اولى واجبات الانسان السيطرة على النفس ، وهذا ما لم يتحقق في إيطاليا . واما غاريبالدي فكان لا يرى الأمور بهذا المنظار ، بل اشترى الأسلحة ، فحملها الايطاليون وتبعوه . وكانت كل من ايطاليا والنمسا تتبع نفس المبادىء الحضارية ، ولذلك همـا متقاربتان في هـــذا المضمار . ولم يكن من خلاف بينهما سوى استرجاع ما أُخذ . وكان همّ غاريبالدي الوحيد تحرير بلاده من

الاحتلال النمساوي . ومكائد الوزير كافور تلطخ جبين هــــذه الحقبة من تاريخ ايطاليا بالعار . وماذا نتج عن ذلك ؟ اذا كنت تتصور بأن ايطاليــــا بلد سعيد ، لمجرد ان الايطاليين هم الذين يحكمونه ؛ فانك حتماً على خطأ جسيم . لقــد اوضح مازيني في النهاية بأن ايطاليا لم تسترجع حريتها ، حسب مفهومه للحرية ، الذي يختلف عن مفهوم فيكتور عمانوئيل . فبالنسبة لهذا الأخير ، وبالنسبة لكافور وحتى لغاريبالدي ، ايطاليا تعني الملك وحاشيته . واما بالنسبة لمازيني فهي تعني الشعب الايطالي بمجموعه ، وعلى رأسهم الفلاحون الذين لم يكن فيكتور عمانوئيل سوى خادم لهم . بالنسبة لمازيني ايطاليا ما زالت مستعبدة . وفي الفترة التي اطلق عليها فترة الحرب الأهلية ، لم تكن الحرب سوى لعبـــة شطرنج بين ملكين متنافسين . واما احجار اللعب فكانت الشعب الايطالي بأسره . والطبقات العاملة في هذا البلد ما زالت بائسة ، ولذلك تثور وتلجأ الى القتل ، ولا تهدأ ثورتها ابداً . واية فائدة حقيقية جنتها ايطاليا من انسحاب الجيوش النمساوية ؟ ان هذا الانسحاب لم يكن سوى انسحاباً اسمياً . وحتى الآن لم ينفــــذ الاصلاح الذي قامت الحرب من اجله . وبصورة عامة ان حالة الشعب ما زالت على ما كانت عليه في السابق . وأنا متأكد من انك لا تتمنى اقامة مثل هذه الحالة في الهند . من المؤكد انك ترغب ، ليس في تسلم السلطة ، بل في تأمين السعادة للشعب الهندي الذي يعدّ مئات الملايين . واذا كان الامر كذلك فعلينا ان نلاحظ شيئاً : كيف سيتوصل الشعب الهنــــدي الى الحصول على

الاستقلال ؟ . انك تقرّ معي بأن الامراء يطغون على ابناء شعبنا ويستخدمون لذلك اساليب لم يستخدمها الانجليز انفسهم . فاذا كان هذا ما تتمناه للهند فسوف لن نتفق ابداً . ان حبي للوطن لا يسمح لي بالسكوت عن طغيان الامراء الهنود على الشعب بمجرد انسحاب الانجليز. واذا كانت عندي القوة الكافية فسوف أقاوم بضراوة طغيان هؤلاء الامراء ، كما اقاوم اليوم طغيان البريطانيين . وأفهم بالوطنية ، السعي لاسعاد الشعب الهندي كله ، واذا كان الانجليز يستطيعون تأمين تلك السعادة فسأنحني امامهم اكباراً . واذا وجدت انجليزياً واحداً مستعداً لوقف حياته في سبيل الدفاع عن حرية الهند، ومقاومة الطغيان وخدمة الهند فسأحسن وفادته كأي هندي صالح .

ومن ناحية ثانية أقول ان الهند لا تستطيع ان تحارب كما حاربت ايطاليا الا اذا كان لديها الاسلحة اللازمة . اعتقد انه لم تخطر في بالك هذه الناحية من القضية . فالانجليز مسلحون بشتى أنواع الاسلحة . ان هذا لا يخيفني ولكن من المسلّم به انه ، لمواجهة الانجليز المسلحين يجب تسليح الآلاف من ابناء الهند . واذا كان ذلك ممكناً ، فكم من السنين يلزمنا لتحقيق ذلك ؟ . غير ان تسليح الهند على هذه الصورة معناه جعلها اوروبية ، اي دفعها الى التعاسة والبؤس . وبكلمة مختصرة ، ان هذا يعني ان تعتنق الهند مبادىء الحضارة الاوروبية. فاذا كان هذا ما نتمناه فمن الأفضل الإبقاء على الانجليز الذين تمرّسوا في تطبيق مبادىء هذه الحضارة . وعندئذ لن نضطر الى القتال في سبيل بعض

المكاسب الرخيصة ، بل نكتفي بما نحصل عليه ، وهكذا تمر الايام . والواقع ان الشعب الهندي لن يحمل السلاح ، وهـــذا امر معروف .

القارىء : انك تضخّم الاشيــاء . فليس من الضروري ان يحمل الجميع السلاح، في البدء ، نغتال بعض الشخصيات الانجليزية فينتشر الذعر والإرهـــاب ، ثم يكشف الهنود المسلحون عن انفسهم ويحاربون علناً . وقد يكلفنا ذلك خســارة ربع مليون هندي ، ولكنه يتيح لنا استرداد بلدنا. نلجأ الى حرب العصابات ونقضي على وجود الانجليز في الهند .

غاندي : بتعبير آخر . انك تريد تدنيس قداسة الهند . ألا ترتعد فرائصك عندما تقول بأننا سنحرر الهنـــد عن طريق الفتك والقتل ؟ ان واجبنا هو ان نضحّي بأنفسنا ، ومن الجبانة قتل الآخرين . مَن تريد ان تحرر بالقتل ؟ ان هـــذا ليس ما يتمناه ملايين الهنود . ولا يقدّم مثل هذه الاقتراحات إلاّ اولئك الذين افسدتهم الحضارة الغربيـــة . ان الذين يصلون الى الحكم على جثث القتلى لا يستطيعون اسعـــاد الشعب . والذين يعتقدون ان ما فعله «دنفرا» وامثاله ، قد افـــاد الهند ، هم على ضلال مبين . ان «دنفرا» كان مواطناً ولكن حبه لوطنه كان حبّاً اعمى . لقد ضحى بنفسه خطأ ، ونتيجة الخطأ لا يمكن أن تكون إلا باطلاً .

القارىء : ولكنك مع ذلك ، تعترف بأن هذه الاغتيالات قد روّعت الانجليز ، واضطرّت اللورد «مورلاي» ان يلجأ الى

بعض الإصلاحات .

غاندي : انالانجليز شجعان وجبناء فيالوقت ذاته .واعتقد أن استخدام السلاح يجعلهم يغيرون آراءهم بسرعة . ومنالممكن ان يكون اللورد «مورلاي» قد لجأ الى الاصلاح بدافع الخوف ، ولكن الذي نحصل عليه تحت ضغط الإرهاب ، لا يدوم إلا في ظلّ هذا الارهاب .

١٦

القوّة الوحشيّة

القارىء : إن الارهاب وحده قادر على أن يحافظ على ما نتج عنه ، وما أُعطي لا يمكن أن يسترجع ، أليس هـذا قولاً جديداً ؟

غاندي : ليس هناك شيء من هذا . إن إعلان ١٨٥٧ صدر إثر ثورة ، وقصد به المحافظة على السلام . ولما اعتقد الشعب ، لبساطته ، بأن السلام قد تأمن ، زال كل مفعول الإعلان وقضي عليه . وإذا كان الخوف من أن أضبَط يمنعني من السرقـة ، فسأسرق بمجرد زوال الخوف عني . وهذه تجربة نستطيـع أن نسميها شاملة . ولعلمنا بأن القوة تساعدنا على نيل ما نطلب من الآخرين نلجأ الى استعمال هذه القوة .

القارىء : ألا تعترف بأنك تورد براهين ضدّك ؟ فأنت تعلم أن الانجليز لم يصلوا الى ما وصلوا اليه في بلادهم إلا عن طريق القوة . وأنا أعلم بأنك تقول إن ما حصلوا عليه عديم الفائدة ،

ولكن ذلك لا يؤثر في طريقة تفكيري . لقد رغبوا في أشياء لا قيمة لها وحصلوا عليها . والنقطة التي أريد ابرازهـا هي : وصلوا الى اهدافهم مهما كان نوع الوسيلة الـــتي استخدموها من أجل الوصول. فلماذا لا نحاول نحن الوصول الى أهدافنا الشريفة، بأية وسيلة كانت ، حتى ولو كانت استخدام القوة ؟ وعندمـا يدخل لصّ الى بيتي ليسرقني ، هل انصرف عنه الى التفكـير بالوسائل الواجب اتباعها لطرده ؟ إن واجبي البديهي هو طرد اللص . وكأني بك تقول : لم نحصل على شيء ولن نحصل عن طريق العرائض والاحتجاج . إذن ، لمـــاذا لا نستعمل القوة الوحشية ؟ وللمحافظة على ما نحصل عليــه نظلل البلد بجوٍ من الارهاب والخوف ، عن طريق القوة ، طالمـا أن ذلك ضروري . وأعتقد أنك لن تستطيع المعارضة في استخدام القوة لمنع ولد من وضع رجله في النار ؟ مهما تكن الوسيلة يجب ان نربح قضيتنا .

غاندي : ان تفكيرك ليس بعيداً عن الصواب ، وقد يخدع به الكثيرون . وفي الماضي ، كنت انا نفسي استخدم الطريقة نفسها في التفكير . ولكنني اعتقد انني ارى بجلاء اكثر الآن . وسأحاول ان افتح لك عينيك . لنبدأ بالمستند الذي يتيح لنـا ان نستخدم القوة للحصول على حقوقنا، لان الانجليز استخدموها في بلادهم قبلنا . من المسلم به انهم استخدموا القوة الوحشية ، وأنه في قدرتنا استخدام قوة اكثر توحشاً. ولكننا بهذه الطريقة لا نستطيع ان نحصل الا على ما حصلوا عليه هم . وانت تعترف

معي بأن ليس هذا ما نهدف إليه . ومن الخطأ الجسيم الاعتقاد بأنه ليس من علاقة بين الغاية والواسطة . وهذا الخطأ قاد كثيراً من المؤمنين الى ارتكاب الجرائم الرهيبة. وهذا يشبه الى حدّ بعيد قولنا بإمكانية بذر الشوك لإنتاج الورد. واذا أردت أن اجتاز المحيط فيجب أن استخدم مركباً ، واذا استخدمت السيارة فسرعان ما أغرق وإيّاها. «قل لي من إلهك، أقل لك من أنت » . هذا مثل ذو قيمة كبرى. لقد أفسِدَ معناه وضل الناس. ولا نستطيع أن نتلقى نِعَم الله الناتجة عن عبادته ، بخضوعنا الى سلطان الشيطان وتنفيذ مشيئته . لذلك يُعتبر مجنوناً ذاك الذي يقول : « أريد أن أعبد الله ، ولكن ماذا يهمني ، لو تمّ ذلك عن طريق الشيطان » . لأننا لا نحصد الا ما نزرع. وفي عام ١٨٣٣ حصل الانجليز ، عن طريق القوّة ، على قانون انتخابي اكثر شمولاً ، ولكن ، هل جعلهم استخدام القوة ، يقدرون واجبهم اكثر ؟ لقد رغبوا في حق الانتخاب ، وحصلوا عليه بالقوة الجسدية . ولكن القيام بالواجب وحده يمنح حقوقاً حقيقية ، وهذه الحقوق لم يحصل عليها الانجليز . ولذلك نرى في انجلترة ان كل فرد يستخدم القوة للوصول الى حقه ، ولكن ما من واحد يفكر في واجبه . وفي بلد يطالب كل فرد فيه بحقوقه ، من يستطيع أن يمنح هذه الحقوق ولِمن ؟ انا لا اقصد بأن ما من أحد يؤدي واجبه . ولكنهم لا يؤدون واجباتهم بشكل يجعل هذه الواجبات موازية للحقوق التي يطالبون بها . وعلى الأخص تلك التي تتطلب الكفاءات اللازمة . ولذلك

فكثيراً ما تنقلب الحقوق الى اعباء ثقيلة . وبعبارة اخرى ، إن ما يحصدونه هو النتيجة الحتمية لما زرعوه . والوسائل ترتبط بالغايات . فاذا كنت اريد سلبك ساعتك،عليّ ان اتقاتل معك. واذا كنت اريد شراء ساعتك فعليّ ان ادفع ثمنها . واذا كنت اريدها منك هدية فعليّ أن اطلبها منك . وحسب الوسائل المستخدمة تكون الساعة إما مسروقة وإما مشتراة ، وإما هدية . وهكذا فوسائل ثلاث مختلفة ادت الى ثلاث نتائج مختلفة. هلاّ ما زلت مصرّاً على انه لا علاقة للوسائل بالنتائج ؟!.

ولنأخذ الآن مثلك عن السارق الذي يجب طرده من البيت. فأنا لا اوافقك بأنه يجب ان يُطرَد بأية وسيلة. فاذا كان السارق والدي مثلاً فإني أعامله بطريقة خاصة ؛ واذا كان شخصاً أعرفه استخدم طريقة اخرى ، واذا كان غريباً ألجأ الى طريقة ثالثة . ألا يمكن القول أنك تستخدم مع سارق هندي طريقة غير التي تستخدمها مع سارق اوروبي . واذا كان السارق كائناً ضعيفاً ، فردّة الفعل والمقاومة تختلف عما لو كان رجلاً قوياً . واذا كان مسلّحاً فقد أجمد في مكاني ولا ابدي أيّة حركة . وهكذا ؛ ان للمقاومة اشكالاً متعددة تختلف حسب الشخص الذي نواجهه ، اذا كان اباً او رجلاً مسلحاً . ولنفترض انني اتظاهر بالنوم ساعة دخول اللص الى بيتي سواء كان هذا اللص أبي او ذاك الرجل القوي ، وذلك لأن الاثنين مسلحان ، ومن الافضل لي وقد تحققت من قوتهما ، تركهما يسرقان . إن قوة والدي تجعلني أبكي شفقة عليه ، بينما قوة الآخر تثير أعصابي وتجعل من هذا

الشخص عدوّاً لي . هذه هي غرابة المواقف . أمام كل هـــذه الأمثلة ، قد لا نتفق على الوسائل الواجب اتباعها . واما بالنسبة لي فاعتقد أنني اعلم ما هو الواجب اتباعه في كل حالة من هذه الحالات ، والحلول قد تخيفك ، لذلك أتردد في اطلاعك عليها . ولذلك سأترك لك أمر التخمين ، فإذا لم تتوصل الى نتيجة ، فمعنى ذلك انه عليك ان تجد حلاً خاصاً لكل حالة . واعتقد أنك فهمت أن أية وسيلة لا تصلح لطرد اللص بل يجب اختيـار تلك التي توافق كل حالة من الحـالات ، ونتيجة لذلك يمكن القول ان واجبك ليس طرد اللص بأية طريقة .

ولنذهب ايضاً الى ابعد قليلاً . هذا الرجل المسلح سرق لك مالك ، وشغل بالك بما فعل ، وانت غاضب ، قررت ان تقتص من هذا اللص . ليس من اجلك فقط ، بل لحماية جيرانك ، تجمع عدداً من الرجال المسلحين وتهاجم بيته ، ويكون اللص ، قد علم بالأمر ، وهرب . إنه الآن غاضب هو الآخر ، ولذلك جمع رفاقه اللصوص ، وانذرك بأنه قـــد يلجأ الى ارتكاب أعماله اللصوصية في وضح النهار . ولكنك الآن قوي ، ولا تخاف منه ، بل ستنتظره برباطة جأش . واثناء ذلك ، يأتي اللص محـــاولاً ازعاج جيرانـــك ، فيشتكون اليك . وتجيبهـــم بأنك لا تفعل شيئاً إلا لصالحهم . وسيّان لو كنت انت نفسك المسروق او سواك . ويجيب الجيران بأنهم في الســـابق لم يشعروا بأي انزعاج من قبل اللصوص . وبأن هؤلاء لم يبدأوا تخريبهم الا على اثر اعلانك الحرب . وعندئذ تجد نفسك بين نارين . تشكو من

جيرانك ، لأن الذين يقولونــه هو الصواب . ماذا ستفعل ؟ اذا تراجعت عن تهديدك وتركت اللص ، تكون قد لطخت شرفك بالعار . وقد تقول ايضاً لجيرانك المساكين : «لا تخافوا ، إن امــــوالي تحت تصرّفكم ، وسأعطيكم السلاح ، واعلّمكم كيفية استعماله . وعليكم انتم ان تلقنوا هــــذا الحقير درساً ، يجب ألا تتيحوا له ان يذهب هكذا » .تقول ذلك فيتسمّم الجو ،ويزداد عدد اللصوص . ويقع جيرانك فيورطة . إن رغبتك فيالانتقام من اللص قادتك الى تعكير صفو أمنك وسلامــك ، وعشت في القلق الدائم خائفاً من ان تُهاجم وتُسرق . وزالت الشجــاعة ليحلّ محلها الخوف . انك اذا تابعت بصبر اقوالي هذه ، فسوف لن تجد فيها أية مبالغة. لقد كانت هذه احدى الوسائل التي يمكن اللجوء اليها . ولنفحص الآن الوسائل الاخرى :

لو اعتبرت هذا اللص المسلحأخاً جاهلاً ، وقررت ان تكلمه بتعقل عندما تسنح الفرصة،وقلت لنفسك أنه أخ لي في الانسانية على الرغم من كل شيء . وبحثت عن الدافع الذي دفعه ليسرق ، وقررت إزالة هذا الدافع ، اذا قدرت عليه ، بمجرّد إتاحـــة الفرصة لك ، لو فعلت ذلك أليس أجدى وانفع ! ! وبينما أنت تفكر هكذا ، يعود اللص ليسرقك من جديد . وعوضاً أن تغضب منه تأخذك الشفقة . وتعتبر أن عادة السرقة هذه مــا هي إلا مرض من الامراض . فتترك بابك ونوافذك مفتوحــة ، وتذهب لتنام في مكان آخر ، تاركاً أغراض بيتك في متناول يد اللص . ويعود هذا ، فيعتريه الذهول مما يرى ، ولكنه يحمل

اغراضك ويذهب . ومع ذلك يتحرّك ضميره ، ويبدأ في السؤال عنك ويعلم أنك رجل كريم النفس وشفوق ، فيندم ، ويعود اليك طالباً الغفران ، ويعيد اليك اغراضك المسروقة ويشفى من مرض السرقة . ويضع نفسه تحت تصرفك فتحصل له على عمل شريف يعيش منه . إن هذه طريقة اخرى قادت الى نتيجة تختلف كل الاختلاف عن النتيجة الاولى . انا لا اريد الاستنتاج مما عرضته ، بأن كل اللصوص سيفعلون ما فعله هذا اللص الذي حدّثتك عنه ، أو بأن الآخرين سيظهرون الشفقة والطيبة التي اظهرتها انت ، ولكنني ارغب فقط في أن أظهر لك بأن الوسائل الجيدة الطيبة هي وحدها التي تعطيك النتائج الحسنة . وبأنه في اكثر الحالات ، اذا لم يكن فيها جميعاً ، نستطيع القول أن قوة الحب والشفقة أقوى بكثير من قوّة السلاح . ان استخدام القوة الوحشية يسبب الضرر ، أما الشفقة فلا .

لنأخذ الآن اسلوب الاحتجاجات . من المسلّم به ان الاحتجاجات التي لا تساندها القوة ، لا تفيد شيئاً . ومع ذلك فالمرحوم القاضي «راناد» كانت له العادة ان يردد دائماً ، أن فائدة الاحتجاج هي افهام الشعب حقيقة حالته ، وانذار الحاكمين ان الاعتراض اذا كان من ندٍّ لك فهو اشارة اللباقة . واذا كان من عبد فهو علامة العبودية . ان الاعتراض الذي تسانده القوّة يأتي من ندٍ لك . واذا كان هذا الندّ قد قدّم احتجاجه فتلك اشارة نبل منه . وهذه القوة يمكن أن تظهر على شكلين : « اذا لم تمنحنا ما نطلب فسنهاجمك» . ان هذه هي قوه السلاح التي

سبق وبيّنا كيف تؤدي الى اوخم العواقب . واما الشكل الآخر للقوة فهو هذا : « اذا لم تمنحنا ما نطلب فسوف لن نطلب شيئاً في المستقبل . وانت لن تستطيع ان تحكمنا إلا اذا اتحنا لك ذلك . ولكننا لا نريد بعد اليوم أن يكون لنا أية علاقة معك» . ان هذه القوة يمكن ان نسميها قوة روحية . او بعبارة أسهل ، ولو كانت أقلّ مطابقة للواقع ، نستطيع أن ندعوها « المقاومة السلبية » . انها قوة لا تُقهَر ولا تُغلب . ومَن يستخدمها يعرف بالضبط مركزه. ان احد امثالنا القديمة يقول : « ان رفضاً واحداً يشفي ستاً وثلاثين سيّئة » . وقوة السلاح تبدو هزيلة جداً امام القوة الروحية والمحبة .

وهاك الآن مثَلك الاخير : مَثل الولد الذي يحاول وضع رجله في النار . ان هذا المثل لا يخدمك في شيء . ماذا ستفعل بالضبط بهذا الولد ؟ لنفترض انه قوي الى درجة انه يستطيع بها الافلات منك ويصل الى النار قبل ان تتمكن من منعه . عندئذ لا يبقى امامك إلاّ حلان : اما ان تقتله حتى لا ترى النار تلتهمه واما ان تضحي بحياتك حتى لا تراه يهلك امام ناظريك . انك لن تقتله ، واذا لم يكن قلبك حاملاً الشفقة ، فانك لن تندفع الى التضحية بنفسك في النار قبل الولد. ومهما يكن من امر فإنك لن تستطيع استخدام القوة الجسدية . وآمل ان لا تعتبر ايضاً محاولتك منع الولد من وضع رجله في النار بالتخويف ، قوة جسدية ، مع انها احط من ذلك .

وتذكّر انك بمنعك الولد هكذا ، انما تعمل لمصلحته هو،

وان سلطتك لا تستخدمها الا لفائدته . ومثلك هذا لا ينطبق على الانجليز . فباستخدام القوة ضد الانجليز انما تستخدمها لمصلحتك انت وليس لمصلحتهم هم ، اي لمصلحة شعبك . وفي هذه الحالة، ليست القضية قضية عطف وشفقة . واذا قلت لي بأن ما يفعله الانجليز هو سيىء ويشبه النار ، وبأن الانجليز يفعلونه عن جهل، ولذلك يصح تشبيههم بالولد ، وبأنك تريد انقاذ هذا الولد ، فإن عليك عندئذ أن تتحمل نتيجة كل المساوىء المرتكبة ومن اي جهة كانت . حتى في حالة الولد العنيد فإن عليك ان تضحّي بنفسك . واذا كنت حقاً قادراً على إظهار مثل هذه العاطفة التي لا تجارى ، فإني أتمنى لك استخدامها من كل قلبي .

١٧

المقاومة السلبية

القارىء : إن ما دعوته قوة الروح أو قوة الحق ، هل له ما يثبته تاريخياً ؟ اعتقد انه لا يوجد مثل واحد أتيح فيه لأي بلد ان يثبت نفسه عن طريق استخدام هذه القوة. وما زلت أعتقد بأن القصاص الجسدي وحده يمكنه منع الشرير من ارتكاب الاعمال الشريرة .

غاندي: لقد قال الشاعر « تولسيدا» ان الشفقة او العاطفة ، هي أساس الدين ، كما أن الانانية هي اساس الجسم ، ولذلك طالما اننا على قيد الحياة فيجب ألا نتخلى عن الشفقة » . إن هذا التأكيد يظهر لي كأنه حقيقة علمية . وأعتقد بصحته كما أعتقد بأن اثنين واثنين يساويان أربعة . ان قوة العاطفة هي نفسها القوة الروحية وقوة الحق . ولدينا البرهان الساطع على فعاليتها . وبدونها يزول العالم . ولكن الذي تطلبه هو برهان تاريخي . ولذلك علينا ان نفهم ما هو التاريخ؟ في « الكوجراتي»

كلمة تاريخ تعني : « حصل هكذا » . فإذا كان الامر كذلك فمن السهل اعطاء الامثلة لأنها عديدة . ولكن اذا كان التاريخ هو العلاقات بين الملوك والامراء والاباطرة والسلاطين ، فإنك لن تجد فيه اي اثر للقوة الروحية ، او للمقاومة السلبية . ولا تستطيع ان تطلب الفضة في منجم للقصدير . والتاريخ كما لقنونا إياه هو سرد للحروب التي حصلت في العالم . ولذلك قال المثل الانجليزي « ان الشعب السعيد هو الشعب الذي لا تاريخ له . » إن التاريخ ينقل الدقائق عن حياة الملوك وتصرفاتهم وعلاقاتهم مع بعضهم . ولكن لو كان الأمر كذلك ، ولم يحصل في العالم غير ذلك لكان فنيَ العالم منذ مدة طويلة . ولو أن تاريخ العالم قد بدأ بحرب لما كان في العالم اليوم اي أثر للحياة البشرية . وبعض الشعوب التي ابتليت بالحروب قد زالت كسكان استراليا الاصليين الذين صفّاهم المغتصبون البيض . وأرجوك أن تسجّل بأن هذا الشعب لم يستخدم قوة الروح للدفاع عن نفسه ، ولم يكن من الضروري ان يكون متبصّراً ليعرف ان الذين قامو على انقاضه سينتهون الى المصير ذاته ، الذي انتهى هو اليه . « إن من أخذ بالسيف ، بالسيف يؤخذ » . والمثل الهندي عندنا يقول : « إن السبّاح المحترف يموت غرقاً » .

وما دام أن العالم ما زال فيه بشر يحيون ، فان هذا يعني أنه لا يرتكز على قوة السلاح ؛ بل على قوى الحق والمحبة . ولذلك فالبرهان الأسطع الذي لا يمكن ردّه ، عن نجاح هذه القوة يكمن في أن العالم مـا زال قائماً على الرغم من كل الحروب .

ان حياة الملايين، وعشرات الملايين من الكائنات منوطة بفعالية هذه القوّة. امامها تصغر الخلافات اليومية بين ملايين العائلات. إن مئات الشعوب تعيش في سلام ، ولكن التاريــــخ لا يذكر شيئاً من ذلك . وفي الحقيقــة ان التاريخ هو سرد كل الحوادث التي عرقلت عمل قوى المحبة والروح. كثيراً ما يتخاصم شقيقان، فإذا بأحدهما يتراجع ، وذلك لأن العاطفـــة الكامنة في داخله قد استيقظت ، ويعود الاثنان الى الحياة بسلام من جديد ، دون أن يلاحظ أحد ذلك . ولو أن أحـــد الأخوين استشار محامياً، أو حملا كليهما السلاح ، أو طلبا العدالة من المحكمة – التي ما هي إلا شكل آخر للقوة الوحشيـــة – لتناقلت الصحف والألسنة قصتهما ، وأخذت هذه القصة مكانها في التاريخ . وما ينطبق على الأفراد والجماعات ينطبق على البلدان . ولا مجال للاعتقاد ان هناك قانوناً للعائلات وآخر للشعوب . فالتاريخ اذن هو لائحـة للعراقيل التي اعترضت السير الطبيعي للحياة . إن قوة الروح ، لأنها طبيعية ، لا يشير اليها التاريخ من قريب أو بعيد .

القارىء : حسبما تقول ، يصبح من المؤكـد انه لا يوجد في التاريخ أي مثل على هذا النوع من المقاومة السلبية . الاّ انه يجب أولاً الاتفاق على ما تعنيه بالمقاومة السلبية . لذلـــك فمن الخير ان تعرف لي ذلك .

غاندي : ان المقاومة السلبية هي الطريقة التي نحافظ بها على حقوقنا بقبولنا تحمل الآلام . إنها عكس المقاومة المسلحة تماماً. فعندما أرفض ان أقوم بعمل لأنه لا يتوافق مع وجداني ، أكون

قد استخدمت قوّة الروح . فإذا اصدرت الحكومة قانوناً مثلا يطبّق عليّ ولا أقدر أن اقبله، واذا كنت استطيع، عن طريق العنف ، ان أضغط على الحكومة لإلغاء هذا القانون ، اكون قد استخدمت ما يسمّى بالقوة المادية . وعلى العكس ، إذا رفضت أن ارضخ لهذا القانون مع قبولي بتحمل الجزاء الذي ينتج عن هذا الامتناع ، اكون قد استخدمت قوّة الروح التي تفرض التضحية بالنفس .

وما من احد يستطيع أن ينكر بأن التضحية بالنفس أسمى بكثير من التضحية بالآخرين . وزيادة على ذلك ، لو استخدمت هذه القوة لهدف غير عادل ، فإن الذي استخدمها وحده هو الذي يتألم ، لا يشاركه في آلامه أحد ، هذه الآلام التي نتجت عن ارتكابه الخطأ. فمامن انسان يستطيع التأكيد بأنه وحده على حق ،وبأن هذا الأمر خطأ، لأنه هو يراه كذلك. في امكانه فقط ان يقول: حسب اعتقادي انه خطأ بالنسبة لي . ونتيجة لذلك ، فمن الجلي الواضح بأنه ليس ملزماً بعمل ما يراه خطأ . وبأنه عليه ان يستعد لتحمل نتائج اعتقاده هذا ، مهما كان نوع هذه النتائج . هذا هو سر تطبيق القوة الروحية .

القارىء : وهكذا يبدو انك تحتقر القوانين ، وهذا معناه الثورة . لقد كنا دائماً نعتبر شعباً يحترم القوانين . والآن يظهر انك تشتطّ كثيراً. حتى المتطرفون يقولون بأن علينا ان نحترم القوانين الصادرة . وإذا كانت لا توافقنا ، فعلينا ان نطرد واضعيها بالقوة .

غاندي : الامتثال الى القوانين نظرياً ، لا أهمية له بالنسبة لك ولي . ونحن نحاول فقط معرفة ما هـو عادل فنمتثل له . وإذا كنا نحن شعباً يحترم القوانين ، فان معنى ذلك ببساطة أننا مقاومون سلبيون . واذا لم يرق لنا بعض القوانين ، فاننا لانصل الى درجة تحطيم رؤوس واضعيها ، بـل نكتفي بالامتناع عن الخضوع لها ، ونتحمل كل ماينجم من ألم وضرر عن هذا الامتناع والقول اننا نمتثل الى القانون عادلاً كان أم جائراً هو قول مستحدث. ففي الماضي لم يكن الامر كذلك ، بل كان الناس يتجاوزون القوانين التي لا تعجبهم ، ويتقبلون الجزاء الذي ينتج عن هـذا التجاوز ، ان الامتثال الى قوانين لا يقبلها وجداننا هو مناف لكرامتنا الإنسانية . ومعناه مخالفة الدين وقبول العبودية . فلو طلبت الحكومة الينا ان نسير عراة فهل نمتثل لطلبها ؟. إذا كان عليّ أن اقاوم سلبياً فيكفي ان اعلن انني لا اعترف بمثل هذا القانون . إلاّ اننا قد ننسى انفسنا ونساير الى درجة تجعلنا لا نكترث بأي قانون مهما كان مهيناً . ان الانسان الذي يـدرك جوهر قيمته ولا يخاف الا الله ، لا يستطيع اخافته اي انسان آخر . وليس من الضروري ان يحمي نفسه بواسطة قوانـين من صنع البشر . ان الحكومة لا تنتظر منا ذلك ، وهي لن تقـول لنا : « عليكم ان تفعلوا كذا وكذا » بل تقول : « إذا لم تفعلوا كذا وكذا تعاقبوا » . لقد انحططنا الى هـذا الدرك ، لأننا اعتقدنا ان واجبنا وديننا يفرضان علينـا الامتثال للقانون . ويكفي المرء ان يعلم بأن خضوعه لقوانين جائرة منافٍ لطبيعته ،

وعندئذ لن تستطيع اية قوة وأي طغيان بشريين ان يجبراه على الامتثال الى مثل هذه القوانين . هــــذه هي الطريق الحقيقية للاستقلال .

إنه لَمِن البُطل والكفر الاعتقاد ان على الأقلية ان تخضع للأكثرية ، وكثيراً مــا اتضح ان الاكثرية كانت على خطأ ، بينما الأقلية كانت على صواب . وفي الأساس ، لا ينبثق الاصلاح إلاّ من أقليـــــة تعارض الأكثرية . واذا كان من الضروري للمرء ان يسرق لـكي تقبله عصابة اللصوص بين صفوفها ، فهل هــــذا يعني بأن على الشريف ان يخضع لهــذه الضرورة ؟ ان العبودية تدوم ما دام ان العبد يعتقد بخرافــة اضطراره الى الامتثال الى القوانين الجائرة . والمقاومة السلبية وحدها تستطيــع ان تقضي على هذه الخرافة .

ان استخدام القوة الوحشية أو المدافع يتعارض مع المقاومة السلبية ، لأن هذا الاستخدام يعني أننــا نسعى الى الحصول على ما نريد بالقوة ، على الرغم من معارضة اخصامنا. وبمجرد تبريرنا لاستخدام القوة الوحشية ، يصبح من حق خصمنا أن يلجأ هو ايضاً الى القوة ويستخدمها ضدنا . وبذلك تزول كل امكانيـــــة للتفاهم. ان المخيلة وحدها تتيح لنا الاعتقاد، كحصان الطاحون المغمض العينين ، بأننا نتقدم . والمقــاومة السلبية هي الدواء الوحيد الذي يمكن تقديمه الى اولئـــــك الواثقين من أنهم ليسوا مُجبَرين على إطاعة القوانين التي لا يقرهــا وجدانهم. واللجوء الى أي دواء آخر يقود الى الهلاك .

القارىء : استنتج مما تقول بأن المقاومة السلبية هي افضل سلاح للضعفاء بينما يستطيع الاقوياء استخدام السلاح .

غاندي : إن خطأك لجسيم جداً . فالمقاومة السلبية ، أي استخدام القوة الروحية ، سلاح لا يضاهى ، لأنه يفوق كل انواع الاسلحة ،فكيف يمكنك ان تنعتها بأنها سلاح الضعفاء ؟ واولئك الذين يتحلون بالقوة الجسدية ، لا يملكون الشجاعة التي تتطلبها المقاومة السلبية . فهل يستطيع الجبان أن يقول : انا لا أرضخ لهذا القانون لأن وجداني لا يقره ؟ ونحن نعتبر المتطرفين محامين للدفاع عن القوة الوحشية ، فلماذا يتكلمون اذن ، عن إطاعة القوانين؟ انا لا ألومهم لأنهم لايستطيعون ان يتصرفوا الا هكذا. وعندما يتمكنون من طرد الانجليز ، لاستلام زمام السلطة مكانهم ، فسيطلبون إلينا جميعاً الرضوخ لقوانينهم . وهذا ما يطلبه الدستور . والمقاوم السلبي يرفض أن يرضخ ، حتى ولو هددوه بالمدافع ، الى اي قانون لا يقره وجدانه .

قل لي ، أيها يتطلب شجاعة أكثر ، الاختباء وراء المدفع واطلاق القنابل للقضاء على الآخرين ، ام التقدم برباطة جأش ، والابتسامة تعلو الشفتين ، من فوهة المدفع التي منها سينطلق الموت عليك ؟!. ايها المحارب الحقيقي ؟ الذي يرافق الموت في كل لحظة ، او ذاك الذي يسبب الموت للآخرين ! صدقني بأنه ما من رجل تنقصه الشجاعة والكرامة يستطيع ان يكون مقاوماً سلبياً .

ومع ذلك، فإنني اعترف بأن رجلاً ضعيف البنية قد يستطيع

أن يكون مقاوماً سلبياً . ان رجلاً فرداً قد يستطيع ذلك كما تستطيعه الملايين . والنساء يقدرن عليه كما يقدر الرجال . وهو لا يستوجب التمارين العسكرية ، ولا معرفة فنون المصارعة . ان المقاوم السلبي في حاجة الى السيطرة على النفس فحسب ، والذي يستطيع أن يسيطر على نفسه يصبح حراً قريناً لملك الغابة ، ونظرته وحدها تكفي للقضاء على عدوه .

ان المقاومة السلبية سيف ذو حدين ، يمكن استخدامه في كل الحالات. وهي تجلب النعمة والبَرَكة لِمَن يستخدمها وللذي تُستَخدم ضده على السواء . وتؤدي الى نتائج ذات أثر طويل المدى ، دون أن تُراق قطرة دم واحدة . انها سلاح لا يصدأ ولا يمكن سرقته . والمعركة بين المقاومين السلبيين لا تُتعِب . وسيف المقاومة السلبية لا يحتاج الى غمد . ومن الغريب حقاً أن تعتبر هذا السلاح سلاح الضعفاء .

القارىء : لقد قلت ان المقاومة السلبية هي من خصائص الهند، فهل هذا يعني بأن الهند لم تلجأ الى استخدام المدافع ابداً؟!

غاندي : دون شك . إن الهند في رأيك تقتصر على بعض الأمراء . واما بالنسبة لي فإنها تلك الملايين التي يتوقف عليها وجودنا ووجود اولئك الامراء . فالملوك يستخدمون دائماً سلاح الملوك الذي هو القوة . انهم يريدون ان يأمروا ، ولكن الذين عليهم ان يطيعوا لا يحتاجون الى بنادق ، وهم اكثرية في شتى بلدان العالم . وإذا تمرّسوا على استخدام قوة الجسم ، اصبحوا مجانين كأولئك الذين علّموهم . ولكن ، عندما يتمرسون على

استخدام قـــوة الروح ، فان اوامر الرؤساء وتهـديداتهم لن تتجاوز انوفهم ورؤوس سيوفهم .لأن الرجال الطيّبين ، يحتقرون الاوامر الظالمة . وأبداً لم يخضع الفلاحون يوماً الى تهديــدات السيف . وانهم يجهلون كيفية استخدامه ولا يخافون مستخدميه . ان الذين يرتاحون لفكرة الموت كأنها وسادة يلقون عليها رؤوسهم هم حقاً الاقوياء . وأولئك الذين يتحدون الموت هم متحررون من كل خوف .

وهذا الوصف ليس مبالغاً فيه حق بالنسبـة لاولئك الذين يعملون وسط سحر القوة الوحشية الخدّاع . وعملياً في الهند ، لقد لجأ الشعب دائماً الى استخدام المقاومة السلبية في كل مجالات الحياة . ونحن ننقطع عن التعاون مع رؤسائنا ، لمجرد قيـامهم بما لا يرضينا ، ان المقاومة السلبية هي هذا .

إنني اتذكر حالة امارة صغيرة ، اغتاظ فلاحوها لأمر اصدره الأمير ، وسرعان مابدأوا يرحلون عن القرية مما أحيى عاطفة الامير ودفعه الى الاعتذار الى أبناء امارته والغاء الأمر الذي أصدره . كثيرة هي الحالات المتشابهة التي يمكن ايرادها كأمثلة عن الهند . ان الاستقلال الحقيقي غـير ممكن التحقيق ، الا اذا كانت قوّة الشعب كامنة في استخدامه المقاومة السلبية . وكل طريقة اخرى هي غريبة عنّا .

القارىء : إنك تقول إذن ، بأنه ليس من الضروري تمرين أجسامنا ؟

غاندي : انا لن اقول مثل هذا القول . إن من العسير مزاولة

المقاومة السلبية بجسم ينقصه التمرين. وبصورة عامة، ان النفس التي تسكن جسماً مدالاً تصان بالضعف . وحيث تكون النفس ضعيفة لا يمكن ان تكون الروح قوّية. فيجب أن نحسن حالتنا الجسدية بتخلصنا من عادات الزواج المبكر وحياة الترف . ولو طلبت من رجل ضعيف الجسم أن يجبه المدفع لضحك منك الناس.

القارىء : إذن ، كما يظهر ، ليس من السهولة ان تكون مقاوماً سلبياً . وفي هذه الحالة أود لو تشرح لي كيف نصبح مقاومين سلبيين ؟

غاندي : إن الامر سهل من ناحية ، ولكنه صعب من ناحية ثانية . لقد صادفت مقاوماً سلبياً في الرابعة عشرة من عمره ، وآخرين أضنى المرض أجسامهم . وصادفت ايضاً افراداً اقوياء الجسم وعندهم كل الامكانات ، لكنهم عاجزون عن ان يكونوا مقاومين سلبيين . بعد تجاربي الطويلة ، وجدت أنه على الذين يريدون ان يقاوموا سلبياً ، ان يحافظوا عن عفتهم المطلقة ، ويتبنوا الفقر ، ويمتثلوا الى الحق ، ويغذوا الشجاعة في نفوسهم.

والعفة من اهم الانظمة ، وبدونها لا تستطيع النفس أن تصل الى الصرامة اللازمة . والانسان الذي لا يمارس العفة يفقد رجولته ، ويسترخي ويجبن . والذي ينصرف الى إشباع شهواته الجسدية لا يمكنه القيام بمجهود كبير . وهناك أمثلة كثيرة على ذلك . والسؤال الطبيعي الذي يتوارد الى الذهن الآن ، هو معرفة سلوك المتزوجين . بالنسبة لهؤلاء ، ليس هناك مشكلة . وعندما يستجيب الزوجان الى نداء شهواتهما الجسدية دون قيود،

يصبحان عبدين لغرائزهما الحيوانية . لذلك يجب ان يقتصر الأمر على تأمين استمرار النسل . وفيما عـــدا ذلك يجب ان يمنع . والمقـــاوم السلبي احياناً لا يرغب حتى في ان يكون له ذرية . وهكذا فالرجل المتزوج في امكانه ان يحتفظ بصفته المطلقة .ولا أستطيـع أن اتوسع اكثر في بحث هذا الموضوع الضيق المجـال ، ولأن اسئلة كثيرة تتوارد الى الذهن : كيف يتوصل الرجل الى اقناع زوجته ؟ وما هي حقوقها ؟ ان على الذين يريدون ان يشتركوا في عمل عظيم أن يتدبروا أمورهم ويحلوا مشاكلهم.

وكما ان العفة ضرورية، كذلك الفقر. فالجشع المالي والمقاومة السلبية لا يتفقان . وهذا لا يعني انه على مَن عندهم اموال ، ان يلقوا بها ، بل ان لا يعيروها اهمية كبرى . وعليهم ان يكونوا مستعدين للتضحية بآخر فلس معهم ، قبل التخلي عن المقاومـة السلبية .

أثناء نقاشنا تحدثنا عن المقاومة السلبية كقوة للحق . لذلك يجب ان تكون مطابقة للحق مهما كان الثمن لذلك . وحول هذا الموضوع ترتسم بعض الاسئلة الاكاديمية مثل : هل يجوز للإنسان ان يكذب في سبيل إنقاذ حيـاة ؟ ان اسئلة كهذه لا تتوارد الا الى ذهن اولئك الذين يحاولون تبرير كذبهم . وأما اولئك الذين يريدون حقاً الامتثال للحقيقـة في كل وقت ، فإنهم لا يمرون في مثل هذه التجارب . واذا كان الامر كذلك ، فإن الحل يأتيهم من تلقاء نفسه لينقذهم من ورطتهم .

وبدون شجاعة لا يمكن أن نتقدم خطوة واحدة في مزاولة

المقاومة السلبية . والذين لا يخافون شيئاً ، هم وحدهم الذين يستطيعون مزاولتها . فلا الموت يرهبهم ، ولا الألم يفزعهم ، ولا الحكومة تخيفهم ، ولا رأي اقاربهم يؤثر فيهم ، ولا حب الذات والمال والثروة يستهويهم .

ويجب ألا نتخلى عن تطبيق هذه القواعد لصعوبتها . فالطبيعة منحت الانسان القدرة الكافية على مجابهة كل ما يعترضه من صعوبات وآلام بنجاح. ان قواعد السلوك هذه مفيدة لأي كان ، حتى ذاك الذي ليست لديه النية في ان يخدم وطنه . ولكن يجب الا نسيء الفهم ، فالذين يريدون التمرس على استخدام الاسلحة عليهم أيضاً ان يخضعوا لهذه القواعد . وحتى يصبح المرء محارباً حقيقياً ، لا يكفي ان يرغب في ذلك ، بل عليه ان يحافظ على عفّته ويقبل الفقر نصيباً له في الحياة . ولا يمكن ان نتصور فارساً تنقصه الشجاعة . بل في امكاننا ان نتصوره يتهرّب من قول الصدق على الرغم من ان الشجاعة الحقيقية لا تنفصل عن الحقيقة . والتهرب من الحقيقة بشكل او بآخر معناه الاستكانة لسلطان الخوف . ان هذه القواعد يجب أن لا تخيف أحداً . ومن الجدير بالذكر هنا ، ان الرجل الذي يرتكز على القوة الجسدية عليه ان يتحلى بصفات لا فائدة منها ، هذه الصفات التي لا يحتاج اليها المقاوم السلبي ، وعدا ذلك ، فسترى أن كل الجهود الاضافية التي قد يستطيع بذلها رجل السيف ، يفرضها عليه نقص في الشجاعة عنده ، وبمجرد استعادته لشجاعته يقع السيف من يده ، لأنه لم يعد في حاجة اليه . والرجل اذا كان

مسلحاً بقضيب في يده ، وواجـه أسداً فجأة ، رفـع قضيبه في وجه الاسد غريزياً محاولاً الدفاع عن نفسه . لقد فهم انه حتى ذلك الوقت ، لم يفعل إلا التحدث عن الشجاعة ، دون ان يكون لديه اية شجاعة . واذا ترك القضيب يقع من يده سرعان ما يشعر بأنه تحرّر من مركب الخوف .

١٨

التعـليم

القارىء : أثناء مناقشاتنا ، لم اسمعك تتحدث عن ضرورة التعليم ، ومع ذلك فنحن نشكو من هذا النقص . وفي الهند اليوم رأت النور حركة جديدة تهدف الى جعل التعليم اجبارياً . وقد أدخلها المهراجــا «غاكوار» الى أراضيه . ان العيون تتسمّر بأولئك الذين عليهم أن يواجهوا هذه التجربة الجديدة ، ونحــن نبارك المهراجا لاتخاذ مثل هذا القرار الحكيم . هل هذه الجهود هي بدون فائدة ؟.

غاندي : اذا كانت حضارتنا ، يمكن حقيقة اعتبارها أرقى الحضارات ، فإنه من الواجب الاعتراف بأسف ، أن كل الجهود التي بذلت في هذا الحقل ذهبت سدىً . ان دوافع المهراجــا وغيره من الزعماء هي نظيفة ومخلصة وتستحق اعجابنا . ومــع ذلك ، لا يمكننا ان نخفي ما ستكون عليه النتائج .

وماذا تعني كلمة مثقف ؟ انها تعني ببساطة أن تكون متعلماً

أي ان تكون حائزاً وسيلة يمكن استعمالها للخير والشر معاً . ان الوسيلة ذاتها يمكن استخدامها لإشفاء مريض او قتله . وهكذا بالنسبة للتعليم . فنحن نلاحظ الى اي درك تقود ، فلا يستعملها في محلها الا القلائل . واذا وافقت على اساس نظريتي فسترى أن سيئات التعليم تفوق حسناته .

المتعلم هو الذي يحسن القراءة والكتابة ، وتلقين الاولاد مبادىء القراءة والكتابة والحساب يشكّل مرحلة التعليم الابتدائي . والفلاح الذي يكسب خبزه بعرق جبينه لديه فكرة عامة عن العالم ؛ فهو يعلم جيداً كيف يجب ان يعامل أقاربه وزوجته واولاده وابناء قريته ، وهو يفهم ويتقيد بالقواعد الاخلاقية . ولكنه يجهل كيفية كتابة اسمه . فلماذا تريد ان تعلّم هذا الفلاح ؟ وهل سيزيد التعليم من سعادته ؟ هل تريده أن يصبح غير راضٍ بنصيبه في الحياة ؟ اذا كان هذا مرادك فهو لا يرغب ابداً في أن يكون متعلماً . واذا انسقنا مع الحركة الفكرية الغربية وصلنا الى نتيجة واحدة ، دون النظر الى الفائدة او الضرر ، وهي تؤكد أن شعبنا في حاجة الى تعليم .

لنتكلم الآن عن التعليم العالي . انا ذاتي تعلمت الجغرافيا والفلك والهندسة ، ولكن لماذا كل ذلك !! وهل نفعني ذلك أو أفاد خاصتي ؟ لماذا تعلمت كل تلك العلوم ؟ لقد عرّف الاستاذ «هكسلي» الثقافة بقوله : «المثقف الكامل هو ذاك الذي تعلّم في شبابه ان يضع جسمه في خدمة إرادته ، والذي يؤدي بسهولة وغبطة كل عمل يقدر عليه جسمه . هو ذاك الانسان

الصافي الذهن الذي يشبه بمنطقه الآلة التي تتساوى كل اجزائها من حيث القوة وتعمل بانتظام ... هو ذاك الذي يزدان عقله بمعرفة حقائق الطبيعة الاساسية .. وهو الذي يلجم رغباته بإرادته القوية مستجيباً لصوت ضميره الحيّ ... هو الذي تعلّم أن يبغض كل خسةٍ ويحترم الآخرين كنفسه . هذا وحده حسب اعتقادي هو الذي استفاد من ثقافة واسعة لأنه على وفاق مع الطبيعة ، ويعرف كيف يُحسن استخدامها وبالعكس » .

واذا كانت هذه هي الثقافة الحقة ، فيجب القول بأن جميع العلوم التي أتيت على ذكرها سابقاً ، لم تكن قادرة على جعلي مسيطراً على حواسّي . وبالنتيجة ، لا التعليم الابتدائي ، ولا التعليم العالي ضروريان من حيث الأساس . فهذه العلوم لا تصنع منا رجالاً ، وهي لا تعلمنا ان نؤدي واجبنا .

القارىء : اذا كان الامر كذلك ، فعليّ أن اطرح عليك سؤالاً جديداً : ما الذي جعلك قادراً ان تقول لي كل هذا ؟ فلو لم تتلق التعليم العالي ، هل كان في إمكانك أن تشرح لي كل هذه الاشياء ؟

غاندي : إن سؤالك في محله . وجوابي عليه بسيط . فأنا لا أظن حياتي ستكون عديمة الفائدة ، لو لم اتلق التعليم الابتدائي والعالي . ولست متأكداً ايضاً من ان « تكلم » تعني « خدم » . ولكن بما انني أرغب في الخدمة ، فإنني احاول ان اخدم مستغلاً ما تلقيته من علوم ومعارف . ومع ذلك فلو استخدمت ثقافتي

فسوف لن استطيع إفادة الجماهير ، بل فئة المثقفين مثلك ، وهذا ما يدعم رأيي . فأنت وانا تسمّمت عقولنا بثقافة خاطئة . وانا حاولت جاهداً التخلص من نتائجها المشؤومة ، وأعتقد انني تحرّرت من ذلك . ولهذا أحاول ان اجعلك تستفيد من تجربتي بتسليط النور على ما تحويه هذه الثقافة من أخطاء . ومع ذلك فأنا لا احكم على المعرفة بصورة مطلقة وحكماً مبرماً ، بل أقول انه يجب الانعتبرها صنماًنقدّسه ، لأن ذلك لن يجعلها مثل «الكمادوك» (بقرة أسطورية تستجيب لكل الرغبات) . وبالمقابل ، من المفيد والضروري ، أن تعرف كيف نخضع حواسّنا للطاعة ، ونركـّز أخلاقنا على ركائز صلبة . وبعد ذلك ، إذا شعرنا برغبة تدفعنا الى التعليم تعلـّمنا ، لاستخدام معرفتنا في السبل الجيدة. وعندما نعتبر الثقافة شيئاً كمالياً ثانوياً ، لا نكون على خطأ . فليس من الضروري جعل التعليم إجبارياً . ونظامنا التعليمي القديم يكفي للقيام بالمهمة . وتكوين الصفات الحسنة يشكـّل الهدف الاساسي لذلك النظام البدائي . وكل ما يُبنى فوق هذا الاساس يكون متيناً .

القارىء: هل يجب أن أفهم من أقوالك بأن تعلـّم الانجليزية ليس ضرورياً للحصول على الاستقلال ؟

غاندي : إن جوابي على ذلك هو نعم ولا معاً . إذ أنّ تعليم الانجليزية لملايين الهنود معناه استعبادهم . والمؤسسة التي اسّسها « ماكولاي » جعلت منا عبيداً . انا لا أدعي بأنه كان يقصد ذلك ، ولكن ، هكذا كانت النتيجة . يزعجنا

ويحزّ في نفوسنا أن نتكلم عن استقلال الهند بلغة اجنبية؟

ومن المفيد الاشارة الى ان الانظمة التعليمية التي نتبناها هي نفسها التي تخلّى عنها الأوروبيون لفشلها . ورجال التعليم عندهم يعمدون دائماً الى التغيير . ونحن لجهلنا نتمسك بأنظمتهم . إنهم يعرفون كيف يحافظون على تراثهم القومي بتطوير كل منطقة من وطنهم . فبلاد « الغال » هي قسم من انجلترة ، وتبذل هناك جهود جبارة لإحياء اللغة الغالية عند الغاليين . وقد شارك في الحركة التي تطالب بذلك لويد جورج بنفسه . فماذا فعلنا نحن للمحافظة على لهجاتنا ؟ اننا نتراسل فيما بيننا بلغة انجليزية مكسّرة ، تجعل جامعيينا أنفسهم يشعرون بذلك . وأحسن أفكارنا نعبر عنها باللغة الانجليزية . كما وان النقاش في المؤتمر يتمّ بالانجليزية. فإذا استمرت الحالة على هذا المنوال ، فإننا حتماً سنكون موضع اللعنة من أحفادنا .

إن الثقافة الانجليزية استعبدتنا ، والهنود الذين تلقنوها ازدادوا رياءً وصلفاً ؛ وهم لا يتورعون عن خداع الشعب ونشر الإرهاب . أليس من المحزن حقاً اضطرارنا الى استخدام الانجليزية للتفاهم في المحاكم ؟ أليس من العار ألاّ يستطيع المحامي ان يرافع بلغته الأم فيلجأ الى مترجم ينقل افكاره الى هذه اللغة ؟ أليس هذا منافياً للعقل؟ أليست هذه علامة العبودية ؟ وهل علينا أن نلوم الانجليز أم أنفسنا على ذلك ؟ نحن الهنود الذين تعلموا الانجليزية ؟ نحن الذين جعلنا بلدنا مستعبداً . وعلينا نحن ، وليس على الانجليز ستنصبّ لعنات الشعب .

لقد قلت لك أن جوابي على سؤالك سيكون نعم ، ولا ، وقد شرحت لك ناحية الإيجاب ، وسأشرح لك الآن ناحية النفي .

نحن مصابون نوعاً بمرض الحضارة الى درجة اننا لا نستطيع التهرّب من ضرورة معرفة اللغة الانجليزية . والذين يعرفونها في امكانهم أن يستخدموها برصانة عند الضرورة . وفي علاقاتنا مع الانجليز ، ومع بعض مواطنينا ، حيث لا يمكن ان نتفاهم بطريقة أخرى ، نستخدم اللغة الانجليزية لنعرف الى اي درجة من القرف والى اي درك قادتنا الحضارة الحديثة . وأولئك الذين يعرفون الانجليزية عليهم أن يعلموا الأخلاق لأبنائهم باللغة الأم . كما أن عليهم أيضاً أن يعلموهم لغة هندية أخرى . وعندما يكبر هؤلاء الأبناء سيكون في قدرتهم ان يتعلموا الانجليزية مع التشديد بأن ذلك ليس ضرورياً . ومعرفة هذه اللغة يجب ان لا تهدف الى الربح ، وخاصة قبل بَدْئنا بتعلمها يجب ان نفكر فيما تتيح لنا الحصول عليه ، وما هي العلوم التي تستوجب معرفتها ، وما هي الاخطار التي يجب ان نتجنبها ؟ وسترى انه في اللحظة التي ننقطع فيها عن الاهتمام بشهاداتهم ، ستنتصب آذان الانجليز .

القارىء : ولكن عندئذ أية ثقافة تريدنا ان ننهل ؟

غاندي : لقد سبق وتكلمنا عن ذلك . ولكنني سأعود الى الكلام مطولاً عن هذا الموضوع . أعتقد انه علينا الاعتناء بكل لغاتنا القومية لتحسينها . وأما الموضوعات التي تمكننا كل لغة من الاطلاع عليها ، فلا مجال للتحدث عنها هنا . والمؤلفات

الانجليزية القيمة يجب ان تترجم الى لغات الهند . وعلينا ان نتخلى عن الادعاء بوجوب دراستنا لجميع العلوم . فالتعليم الديني اي الاخلاقي ، يجب ان يكون له المرتبة الاولى . وكل هندي مثقف عليه ان يتقن الى جانب لهجته ، السنسكريتية اذا كان هندوسياً ، والعربية اذا كان مسلماً ، والفارسية اذا كان بارسياً. وعلى الجميع ان يتقنوا اللغـــة الهندوستانية . وبعض الهندوس عليهم ان يتقنوا العربية والفارسية ، وبعض المسلمين والبارسيين اللغة السنسكريتية . وبعض هنود الشمال عليهم ان يتعلموا لغة « التاميل » . ولغة الهند العامة يجب ان تكون « الهندوستانيه » والمرء حرّ في ان يستخـدم الحرف الفارسي او « الناغري » . وحتى يتمكن الهندوس والمسلمون من التفاهم عليهم ان يتقنوا الطريقتين للكتابة . واذا توصلنا الى ذلك ، فإن الانجليزي يزول نفوذه من ذاته وبسرعة فائقة .

القارىء : ان مسألة التعليم الديني حساسة جداً .

غاندي : وبما انها في غاية الأهمية ، فإن الهند لن تكون ملحدة، والالحاد لن يزدهر فيها. ان مسألة التعليم الديني حساسة جداً ، والتفكير فيها وحده يكاد يسلبني رشدي . إن أولئك الذين يلقنوننا تعاليم الدين أنانيون ودجالون ، وعلينا ان نقربهم منا . فا « الملاّ » و « الدستور » و « البراهمين » يملكون ناصية الامور في ايديهم . واذا كانوا لا يريدون ان يعودوا الى جـادة الصواب ، فعلينا ان ننذر للتعليم الديني الحيوية التي منحتنا أياها الثقافة الانجليزية . وهذا ليس بالأمر العسير ، فكما ان شواطىء

البحر وحدهـــا تدنسها الأوساخ ، كذلك الاطارات الدينية وحدها يجب ان تنقى. ان ملاحظتي هذه لا تنطبق على المجموع، بل علينا ، بأنفسنا ، وهنا يجب ان نبدأ . وإذا كنا نريد احياء الهند الغابرة، علينا ان نعود بها الى حالتها الاصيلة . انحضارتنا ستعرف الازدهار والانحطاط ، الاصلاح والانحرافات الرجعية المختلفة ، لان همنا الأول يجب ان يكون التخلص من الحضارة الغربية ، وما تبقى يأتي فيما بعد ...

١٩

الآلة

القارىء : عندما تطلب التخلص من حضارة الغرب، أعتقد انك تضمّن ذلك كل ما يدخل في نطاق الآلة . أليس كذلك ؟ !

غاندي : إن هذا السؤال يفتح من جديد الجرح الذي خلّفته في نفسي قراءة تاريخ الهند الاقتصادي للمستر « دوتّ » . ان إثارة هذا الموضوع تسبب لي الكثير من الالم ، فالآلة هي التي أفقرت الهند ، ويصعب جداً تقدير الضرر الذي ألحقته بنا « مانشستر » . وبسبب هذه المدينة انهارت الحرَف الهندية وكادت تضمحل .

إنني أسيء التعبير ، فكيف يمكن ان نلوم مانشستر ؟ ! نحن نلبس الثياب التي تحيكها مانشستر لهذا الغرض ، والشجاعة التي أظهرتها البنغال قد اثلجت صدري : لم يجدوا آلات للنسيج فأحيوا الطريقة البدائية للحياكة اليدوية . ومن المسلم به ان البنغال تشجع الصناعة النسجية في بومباي ، ولو قاطعوا كل ما

هو مصنوع خارجاً لأحسنوا الصنع .

لقد نشرت الآلة الأسى في اوروبا ، واصبحت بريطانيا على شفير الهاوية والآلة التي ترمز الى الحضارة الحديثة ، هي التعبير عن حالة خاطئة .

وعمال مصانع النسيج في بومباي أصبحوا عبيداً ، وحالة النساء العاملات هناك يرثى لها . وقبل وجود هذه المصانع كانت النساء لا يمتن جوعاً . ولو امتد جنون الآلة وشمل الهند كلها لعمّت التعاسة فيها . قد يظهر هذا وكأنه بدعة جديدة ، ولكن أعتقد بأنه من الافضل للهند أن تستمر في شراء النسيج البريطاني من ان تقيم هي المصانع فوق اراضيها . اننا باستعمالنا نسيج بريطانية نكون قد بذّرنا أموالنا ، ولكن بتقليدنا لبريطانيا نوفر اموالنا لنهرق دماءنا ، ونقضي على كياننا الروحي ، وفي امكاني ان استشهد على ما اقول بالعمال انفسهم .

وأولئك الذين يجمعون الثروة عن طريق المصانع لا يمكنهم ان يكونوا افضل من الرأسماليين . ومن الحماقة الاعتقاد أن روكفلر هندياً يمكن ان يكون افضل من روكفلر اميركي .

قد تستعيد الهند حريتها ولكن من العسير جداً على الهند التي أثرَت عن طريق الرذيلة ان تتحرر .

علينا مع الاسف ، ان نعترف بأن النفوذ الانجليزي ، يسانده جماعة منا باعوا انفسهم للانجليز ، منوط استقراره بمصالح هذه الجماعة . فالمال يضعف الانسان ، وهناك آفة أخرى لا تقل خطورة عن الاولى ، هي الاسراف في الحياة الجنسية ، انهما سمان

قاتلان ، ولدغة الثعبان هي اقل خطراً مما تسببه احدى هاتين الآفتين . فالثعبان لا تؤثر لدغته إلا في جسمنا ، امّا هاتان الآفتان فانهما تقضيان على جسمنا وعقلنا وروحنا معاً . ولذلك فعلينا ان لا نفرح لازدهار صناعة النسيج عندنا .

القارىء : هل يجب ان نقفل هذه المصانع اذن ؟

غاندي : ان هذا صعب ، فليس من السهل القضاء على ماهو قائم . ولذلك فالحكمة السامية تقضي بأن لا نستمر في اقامة المصانع . ونحن لا نستطيع ان نلوم الصناعيين ، بل يجب ان نشفق عليهم ، ويجب الاّ ننتظر منهم ان يتخلوا عن مصانعهم لأن هذا من قبيل الخيال ، ولكن في قدرتنا ان نطلب منهم ألا يقيموا مصانع جديدة . فاذا استطاعوا ان يتفهّموا مقصدنا بوضوح ، ضيقوا اعمالهم تلقائياً شيئاً فشيئاً . وفي استطاعتهم ان يستخدموا اموالهم لاحياء الحِرَف القديمة اليدوية . وشراء فائضها . ومهما يكن موقف الصناعيين ، فهذا لا يمنع الشعب من ان يقاطع البضائع المصنوعة آلياً اذا اراد هو ذلك .

القارىء : لم تتكلم حتى الآن إلا على المتسوجات المصنوعة ، ولكن هناك الكثير من الأشياء الاخرى المصنوعة آلياً : فهل علينا ان نستوردها من الخارج ، أم ان نقيم في بلادنا مصانع لإنتاجها؟

غاندي : الواقع أن آلهتنا ذاتها صُنعت في المانية . فما الفائدة إذن من التحدث عن الزجاج والدبابيس وعيدان الثقاب؟ ليس عندي إلا جواب واحد لكل ذلك : كيف كانت تعيش الهند قبل إدخال هذه المصنوعات اليها ؟ لنفعل اليوم ما كان

يفعله أجدادنا بالامس. وما دام أنه لا يمكننا صنع دبابيس بدون آلات ، يجب ان نستغني عن استعمال الدبابيس . ويجب الا نهتمّ كثيراً لجمال الأواني الزجاجية ، واما فتائل المصابيح فلنستعض عنها بالقطن الذي ينبت في أرضنا . ولنصنع مصابيحنا من الفخّار . إننا بتصرفنا هذا نوفّر نظرنا ومالنا ونساند استقلالنا الاقتصادي (سوادشي) ونتمكّن من استرجاع حرّيتنا واستقلالنا السياسي .

وإنه من قبيل الوهم ان نعتقد ان الهنود جميعاً يمكنهم حالاً القبول بهذه الاصلاحات، ولا يؤمل أيضاً رؤية عدد منهم ، مهما كان ضئيلاً ، يستغني بسهولة عن الاغراض المصنوعة آلياً .

ولكن اذا كان تفكيرنا سليماً ، ففي قدرتنا التمييز بين ما هو ضروري وما هو كاليّ فنهمل هذا الاخير . فإذا نجحنا تبعنا الآخرون وقلّدونا : وتتّسع الحركة وتؤتي ثمارها . إن ما يفعله الرؤساء، يقلده ابناء الشعب بكل طيبة خاطر . والمسألة ليست صعبة ولا معقّدة . لسنا نحن : انت وانا ، في حاجة لأن ننتظر كي نرى ما اذا كان الآخرون مستعدّين لاتباعنا . والذين لا يسيرون في هذا الاتجاه معرّضون لفقدان كل شيء ، حتى لو إدّعوا بأنهم يحبّون الحقيقة ، فإنهم يستحقّون لقب «جبناء» .

القارىء: وماذا تقول عن الكهرباء والقاطرات الكهربائية؟

غاندي : إن سؤالك جاء متأخراً قليلاً ، ولم يعد له من معنى . فاذا كنا نستطيع الاستغناء عن الخطوط الحديدية فمعنى ذلك أننا نستطيع ايضاً ان نستغني عن القاطرات الكهربائية

والآلة كجحر الثعبان ، وقد يحوي هذا الجحر ثعباناً واحداً ، وقد يحوي مئة من الثعابين . وحيث توجد الآ لة ، تقوم المدن الكبرى ، وحيث توجد المدن الكبرى تمتد الخطوط الحديدية، وتسير القاطرات ، وتستخدم الكهرباء للإنارة. وحتى القرى الانجليزية لا يمكنها التبجح بأن فيها كل هذه التجهيزات . والاطباء الشرفاء يصرحون لك بجرأة ان الحالة الصحية العامة تتدهور في المدن بسبب ازدياد الآلات والمصانع ووسائل النقل الآلية . وقد لاحظت ، في بعض المدن الاوروبية ، ان النقص في الثروة ، يضر بشركات النقل الآلي ، ورجال القانون ، والاطباء ؛ ولكنه من ناحية اخرى يساعد على تحسين الصحة العامة . وانا لا استطيع ان اجد حسنة واحدة تشفع بالآلة وترغب في استعمالها ، بينما يمكننا كتابة المجلدات عن مساوئها .

القارىء : ما دام أن الذي تقوله لي الآ ن يمكن طبعه بواسطة الآ لة ، أفلا يشكّل ذلك حسنة من حسنات الآ لة ؟

غاندي : قد يُستخدَم السمّ احياناً علاجاً ضد السمّ . وكأني بالآلة تقول وهي في ساعة النزاع الاخير : «انتبهوا ، انتبهوا ، واحذروا مني ؛ ان الذين اصابهم مسّ ، هم وحدهم الذين يستطيعون ان يستفيدوا مني باستخدام المطبعة» .

وفي النتيجة ، لا تنسَ الشيء الاساسي ، وهو ان الآلةسيئة بذاتها . ولذلك علينا ان نتخلص رويداً رويداً من استخدامها . وليس من نواميس الطبيعة أن نصل الى الهدف بمجرّد رغبتنا في الحصول عليه . فعوضاً عن ان نعتبر الآ لة من الحسنات يكفي أن نعتقد أنها من السيئات لتنهار من نفسها .

٢٠

الخـاتمة

القارىء : إذن ، أعتقد انك تريد ان تؤلف حزباً ثالثـاً ، لأنك لست معتدلاً ، ولست متطرفاً .

غاندي : إنك على خطأ. فأنا لم أفكر ابداً في تأسيس حزب ثالث ، لأننـا لا نفكر جميعاً بالطريقة ذاتهـا . والمعتدلون أيضاً تختلف نظرتهم الى الأمور . فكيف تستطيع فئة هدفها الوحيد هو الخدمة ، أن تنتسب الى حزب معيّن ؟ إني أريد ان أخدم ، في الوقت ذاته ، المتطرفين والمعتدلين. وعندما أختلف معهم على قضية معينة، أعرض لهم وجهة نظري، واتابع طريقي في خدمة بلادي .

القارىء : وماذا تستطيـع أن تقول لأنصار الحزبين ؟

غاندي : الى المتطرفين أقول: « انا أعلم أنكم تريدون استقلال الهند ، ولكن هذا لا يتم بمجرّد الطلب . بل على كل واحد أن يشارك في هذا، والذي يمنحنا إياه الآخرون لا يمكن الا ان يكون

غريباً وليس وطنياً . ولذلك لا يكفي أن نطرد الانجليز لنفوز باستقلالنا ، فقد سبق وشرحت مفاهيم الاستقلال . والاستقلال لا يمكن الحصول عليه بقوّة السلاح ، لأن القوة الوحشية ليست من طبيعة الهنود . بل عليهم ان يتسلحوا بالقوة الروحية فقط. ولا تعتقدوا ابداً ان العنف يجب ان يكون ضرورياً ، في اي مرحلة للوصول الى الهدف المقصود » .

والى المعتدلين اقول : «ان الاعتراض والاحتجاج ما هو إلا عمل منافٍ للشريعة ، يثبت انحطــــاطنا . والقول ان النفوذ البريطاني ضروري معناه نكران وجود الله ، لأنه ما من ضروري الا الله . وعلاوة على ذلك ، إن سلامة العقل تفرض علينا الامتناع عن دغدغة غرور الانجليز ، بقولنا ان بقاءهم في الهند مــا زال ضرورياً .

«ولو ترك الانجليز الهند وعادوا الى بلادهم ، فانها لن تنتحب كالارملة التي فقدت زوجها . من الممكن ان يصدم اولئك الذين اجبرهم الانجليز على التعايش السلمي بعضهم ببعض ، بعد ذهاب الانجليز . ولكن ليس هناك مبرر للحجر ، بأي ثمن ، على انفجار يجب ان تتاح له الفرصة لكي ينفجر . فلذلك اذا تعــــذر علينا اقامة سلام دائم ، إلا بعد خصام فلنتخاصم . ولا موجب لأن ننشىء حزباً ثالثاً لحماية الضعفاء . إن هــــذه « الحماية » هي التي أضعفتنا ، بجعلها الضعفاء اكثر ضعفاً . وطالما اننا لا نفهم هــذه الأشياء ، فلا يمكننا أن نكون مستقلين . وأود ان افسّر قول أحد رجال الدين الانجليز بأن الاستقلال مع الفوضى خير من

النظام الاجنبي. إلا أنّ المفهوم الذي يعطيه هذا الرجل لاستقلال الهند ، يختلف تماماً عن مفهوم الاستقلال الذي اقصده أنا . يجب أن نتعلم نحن ، ونعلم الآخرين بأننا لا نريد أي طغيان يحميه قانون بريطاني أو هندي » .

ولو أمكن تحقيق هذه الفكرة ، لتصافح المتطرّفون والمعتدلون ، لأنه لا يبقى هناك من موجب للخوف أو الاحتقار من قبل الطرفين .

القارىء : وماذا تقول إذن للانجليز ؟

غاندي : أقول لهم بكل احترام : « أنا أعترف بأنكم تحكمونني ، ومن العبث النقاش فيما إذا كنتم أخضعتم الهند بقوة السلاح ، أم بمساعدتي لكم . وأنا لا أعارض بقاءكم في بلادي ، ولكن ، رغم كون السلطة في أيديكم ، لا يمكنكم ان تبقوا الا كخدّام للشعب . فليس نحن ، من يجب ان يستجيب لرغباتكم ، بل عليكم أنتم ان تمتثلوا لإرادتنا وبإمكانكم الاحتفاظ بالثروات التي جنيتموها من بلادي ، ولكني أمنعكم من الاستمرار في امتصاص ثروتي . وإذا أردتم ، فإن في استطاعتكم تأمين النظام في الهند ولكن ، يجب أن تنزعوا من رؤوسكم كل فكرة للربح على حسابنا . إن حضارتنا هي نقيض حضارتكم ، ونعتبرها أرقى منها بكثير . فإذا اعترفتم بهذه الحقيقة ، فهذا لمصلحتكم ، واذا لم تعترفوا توجب عليكم أن تعيشوا في بلادنا حسب الطريقة التي نتبعها نحن في معيشتنا ، وذلك حسب المثل الانجليزي . ويجب ألا ترتكبوا اعمالاً تتنافى مع احد اديانننا . وطالما أنكم

الحاكمون ، فواجبكم ، مراعاة للهندوس، ان تمتنعوا عن أكل لحم البقر ، ومراعاة للمسلمين ، ان تمتنعوا عن لحم الخنزير . لقد سكتنا حتى الآن جبناً منا ، ولكن يجب ان تعلموا بأن تصرفاتكم تجرحنا في اعمق مشاعرنا . ولا نفصح لكم عن افكارنا بتأثير الانانية او الخوف ،بل لان الوقت قد حان واصبح من واجبنا ان نرفع الصوت عالياً للتعبير عما نريد . ونحن نعتبر مدارسكم وشرائعكم عديمة الفائدة . ونود ان نحيي مدارسنا وشرائعنا . ولغة الهند ليست الانجليزية بل الهند وستانية ، ولذلك عليكم ان تعلموا ذلك . واننا لانريد ان نتفاهم معكم الا بلغتنا القومية .

« ونحن لانقبل بأن تبذروا اموالنا لمد الخطوط الحديدية ، والانفاق على القوات العسكرية . فنحن لا نرى ذلك ضرورياً . قد تكونوا انتم تخافون الروس اما نحن فلا . وعندما يأتون سنعتني بهم ، وإذا كنتم مازلتم في بلادنا فسنستقبلهم معاً . اننا لا نريد استعمال منسوجات مصنوعة في اوربة ، بل نريد استخدام المنسوجات الوطنية ، التي نصنعها نحن بطريقتنا الخاصة . وليس في قدرتكم ان تضعوا رجلاً في مانشستر والاخرى في الهند . ولا نستطيع ان نعمل معاً الا اذا اتفقت مصالحنا .

«انا لا اقول لكم كل هذا من قبيل التجبّر والتكبّر . فعندكم الامكانات العسكرية الضخمة . واساطيلكم لا مثيل لها . واذا حاولنا ان نحاربكم بسلاحكم فنحن اعجز عن ذلك ، ولكن اذا لم تقبلوا هذه الشروط التي ذكرت ، فسننقطع عن لعب دور

المحكومين . انكم تستطيعون أن تسحقونا ، وتقطّعونا إرباً إرباً بقنابلكم . اذا عملتم عكس ارادتنا فسوف لن نساعدكم في مهمتكم، وبدوننا لا تستطيعون ان تتقدّموا خطوة واحدة .

« من الممكن ان تحملكم سكرة السلطان على الضحك مما أقول ونحن لا نستطيع ان نبدد اوهامكم دفعة واحدة . ولكن ، اذا كان فينا درهم كرامة ، فسترون سريعاً ان نشوتكم هذه تقودكم الى الانتحار ، وان ضحكاتكم مما نقول ناتجة عن شرودكم الفكري . اننا نتمنى من كل قلوبنا ان تنتسبوا الى شعب متديّن. فبلدنا هو منبع الأديان . والسؤال ليس معرفة كيفية وجودنا معاً هنا ، بل الاستفادة من هذا الوجود المشترك ، للتعاون في سبيل الهدف الواحد .

« واولئك الذين جاؤوا من انجلترة للإقامة في الهند ، ليسوا الممثلين الحقيقيين للشعب الانجليزي ، ولا اولئك الهنود الذين «تأنجلزوا» يمثلون الشعب الهندي. ولو كان الشعب الانجليزي على معرفة بما تفعلونه في الهند لعارض الكثير من افعالكم . فالشعب الهندي ليس له إلا القليل من العلاقات بكم. ولو اردتم ان تتخلوا عن حضارتكم المزعومة ، وتقرأوا بانتباه كتبكم المقدسة ، لوجدتم بأن مطالبنا كلها مطالب حقة . ان بقاءكم في الهند منوط باستجابتكم لكل هذه الرغبات. واذا بقيتم ، فستعلموننا الكثير وتتعلمون الكثير ايضاً بدوركم . وفي هذا كل الخير لنا ولكم وللعالم. ولكن ذلك لا يتم الا اذا بنينا علاقاتنا على اسس دينية».

القارىء : وماذا تقول للشعب ؟

غاندي : مَن هو الشعب ؟

القارىء : الشعب هو اولئك الذين قصدناهم طيلة نقاشنا ، اولئك الذين تنغّص عيشهم الحضارة الاوروبيــة ، ويتمنون الاستقلال بحرارة .

غاندي : اليهم اقول اذن : « ان الذين يعمر قلوبهم الحب هم وحدهم يستطيعون ان يجاهروا الانجليز بدون وجل ، بما سبق وأشرت اليه . وذلك لاقناعهم بأن الحضارة الهندية هي الأرقى وبأن الحضارة الاوروبيــة ما هي الا نار في هشيم ، وهي سائرة الى الزوال ككثير غيرها من الحضارات التي سبقتها . هؤلاء وحدهم ، الذي نمت فيهم قوة الروح ، هم الذين ينحنون أمام القوة الوحشية ويأبون استخدامها . وقــد ذاقوا كأس الحضارة الحديثة المسموم ؛ يتألمون كثــيراً من الحالة الحاضرة .

« فإذا كان يوجد هندي واحد تنطبق عليه هذه الأوصاف، فليصرّح للانجليز عاليــاً بما قلته ، وسيرى انهم سيضطرون الى الإصغاء اليه .

« إن ما قلته ليس من قبيل العرائض ، بــل تعبيراً عن حالتنا النفسية .فنحن نحصل على ما نريد، ليس بمجرّد الطلب، بل بأخذه . وللقيام بهذا المجهود يلزم حيوية كبرى لذاك الذي يتصرّف بالطريقة التالية :

١ ـ لا يستخدم اللغة الانجليزية إلا لدى الضرورة القصوى .

٢ ـ إذا كان من رجال القانون يــترك مهنته ويتعلّم الحياكة

اليدوية .

٣ – إذا كان من رجال القانون يستخدم معارفـــه لتنوير شعبه قبل الانجليز .

٤ – اذا كان من رجال القانون ، لا يشترك في المجادلات ولا يلجأ الى المحاكم ، بـل يتيح للناس أن يستفيدوا من تجاربه ، ويدعوهم الى تقليده .

٥ – إذا كان من رجال القانون يرفض أن يكون قاضيـاً ، كما يرفض ان يكون محامياً .

٦ – إذا كان طبيباً ، يتخلـّى عن الطب ، ويقتنع بأن الاعتناء بالروح خير من الاعتناء بالجسد .

٧ – اذا كان طبيباً ، أياً كان الدين الذي ينتمي اليه ، يفهم أنه من الأفضل له ان يكون مريضاً ، على ان يُشفي بفضـــل تجارب ممقوتـــة أجريت على الحيوانات في مدارس الطب الأوروبية .

٨ – وعلى الرغم من كونه طبيباً ، يتعلم مهنة الحياكة ، فـإذا جاءه مريض دلـّه على سبب مرضه ، وعوضاً عن أن يعطيه الأدوية العديمة الفائدة ، ينصحه بوجوب التخلص من سبب المرض . لأن هذه هي المساعدة الحقيقية وعمل الخير الحقيقي .

٩ – حتى لو كان من اصحاب الثراء ، عليه ألاّ تحول ثروتـه دون الافصاح بشجاعة عما يجول في خاطره ، دون ان يخاف من احد .

١٠ – إذا كان من اصحاب الثراء يسخر ثروتـــه لشراء أنوال

الحياكة ، ويشجّع الناس باعطائهم المثل على وجوب استخدام ما يُصنع بيديه .

١١ – ككل الهنود عليه أن يعلم أن الوقت قد حان للتوبة والغفران والتوشح بالسواد .

١٢ – ككل الهنود عليه ان يعلم ان لوم الانجليز لا يفيد ، وأننا نحن المسؤولون عن وجودهم في بلادنا ، وبأنهم لا يذهبون ولا يغيّرون طريقتهم في الحياة الا اذا تطوّرنا نحن انفسنا .

١٣ – عليه أن يعلم ، كالآخرين ، بأن في فترة الحداد والحزن لا يجوز الانصراف وراء الملذّات ، وبأنه ما دامت هذه الحالة قائمة ، فالسجن والمنفى هما افضل مكان للإقامة .

١٤ – عليه ان يعلم كالآخرين ، بأنه من الخطأ الجسيم التهرّب بأي ثمن من السجن ، للإبقاء على العلاقة مع الشعب .

١٥ – عليه ان يعلم كالآخرين ، بأن العمل خير من الكلام ، وبأن واجبنا أن نَصدُق القول فيما نفكر ، بدون خوف ، مهما كانت النتائج ، وبأن تصرّفاً كهذا وحده يتيح لنا أن نُقنِع الآخرين بما نقول .

١٦ – عليه ان يعلم كالآخرين ، بأن الألم وحده ينقذنا ويحرّرنا .

١٧ – عليه ان يعلم كالآخرين ، بأن النفي مدى الحياة الى جزر « ادمان » لا يكفي للتكفير عن ذنبنا في تشجيعنا للحضارة الأوروبية .

١٨ – عليه ان يعلم كالآخرين بأن ما من بلد يعظم من دون ألم . وحتى في الحرب ، ان الشجاعة الحقيقية هي القدرة على

احتمال الألم ، وليست قتل الآخرين . وكم من الاجدر ان يكون ذلك في المقاومة السلبية .

١٩ — عليه ان يعلم كالآخرين ، بأنه من علائم الخمول والكسل الانتظار لعمل شيء يعمله الآخرون ايضاً . يجب ان نفعل ما نعتقد بأنه الصواب ، وعلى الآخرين ان يقلدونا عندما تتكشف لهم هذه الحقيقة ، وينفتح لهم الطريق . عندما اشعر برغبة في أكل الحلوى لا أنتظر حتى ارى الآخرين يتذوقونها . والعمل في سبيل الشعب ، وتحمل الآلام من اجله ، يجب اعتباره كالحلوى . ومع ذلك ، فلو تألم المرء تحت الضغط الخارجي فهذا ليس معناه أنه تألم حقيقة .»

القارىء : انه برنامج كامل ، ولكن متى يتاح للجميع ان يطبقوه ؟

غاندي : ان خطأك هو في تفكيرك في الجميع . انت وانا لسنا الآخرين . ليعمل كل واحد واجبه . فاذا عملت واجبي مبتدئاً بنفسي ، يصبح بمقدوري ان اخدم الآخرين . وقبل ان اتركك ، استميح لنفسي بأن اوجز ما اردت ان اقوله لك :

١ — ان الاستقلال الحقيقي يبدأ في السيطرة على النفس .

٢ — نصل الى الاستقلال عن طريق المقاومة السلبية ، أي قوة الروح او قوة المحبة .

٣ — لنتمكن من استخدام هذه القوة يجب ان نطبق الاستقلال الاقتصادي في كل وجوهه .

٤ — يجب ان نعمل ليس حباً بمعارضة الانجليز ، أو من أجل

الانتقام ، بل بدافع الواجب . وهكـذا ، حتى ولو الغى الانجليز الضريبة على الملح ، وأعادوا لنا أموالنا ، واخلوا المراكز الحسّاسة في ادارة الدولة ، وسحبوا جيوشهم من أراضينا فإننا لن نعود الى استعمال منتوجاتهم والتخاطب بلغتهم .يجب ان نعلم بأن هـذه الاشياء مضرة بطبيعتهـا ، ولذلك لا نريدها. انالا أحقد على الانجليز بل على حضارتهم. وإنني أعتقد اننا نستعمل كلمة « استقلال » دون ان نفكر في مدلولها الحقيقي . لقد حاولت أن أشرح معناها كما أفهمها ، ويمكنني القول ، مرتاح الضمير ، بأنني منـذ الآن سأقف حياتي للحصول على هذا الاستقلال .

انتهـــى

فهرس

الغلاف بريشة :
شموط اخوان

مطابع دار الكشاف - بيروت

غاندي .. والحضارة الحديثة

نستطيع القول ان غاندي هو أعظم وأغرب شخصية عرفها العالم في هذا القرن الحافل بالعجائب . القرن العشرين !

لقد كانت روحه تحتضن القارة الهندية من اقصاها الى أقصاها وتلفها بجذوة من الطهارة والقداسة ، طهارة وقداسة الأنبياء والقدّيسين ، إلى أن قيّض لهذه الشخصية الفريدة أن تتوارى ، مثلما توارى قبلها اكثر الانبياء والقدّيسين ، على أثر اغتيال غادر أحمق !

إن فلسفة غاندي التي شرحها في هذا الكتاب ، "حضارتهم وخلاصنا" بقلمه السلس وأسلوبه المشرق ، هذه الفلسفة المعادية لحضارة الغرب الحديثة ، تجعلنا نعيد النظر في كافة مثلنا العليا وطرقنا في الحياة ، وتدفعنا إلى اليقين « بأن هذه الحضارة المادية سوف تقضي على نفسها بنفسها » عندما ينفلت زمام العقل ، ويحتك الحديد بالحديد ، وتنطلق الصواريخ إلى مهمتها الرهيبة : مهمة تدمير العالم وتقويض حضارته !



منشورات المكتب التجاري - بيروت